جامعـة
المنصــورة
كليـــة الآداب
–

تسهيل السبيل إلى تعلم الترسيل
لأبى عبدالله الحميدى الأندلسى
المتوفى ٤٨٨ هجرية
"دراسة نقدية"

إعـــداد

الدكتور / عبد الحميد محمد شعيب
مدرس الادب العربى بكلية البنات الازهرية
فى العاشر من رمضان

الدكتور / أحمــد أحمــد مجـــــاهد
مدرس الادب العربى بكلية الدراسات
الإسلامية والعربية فى المنصورة

مجــلة كلـــية الآداب – جامعـــة المنصـــورة
العدد الثانى و الخمسون – يناير ٢٠١٣

تسهيل السَّبيل إلى تَعَلُّم التَّرسِيل لأَبي عبد الله الحُمَيدِيِّ الأَندلُسيّ المُتوفَّى ٤٨٨هجرية دراسة نقدية

د . عبد الحميد محمد شعيب
د. أحمـــد أحمـــد مجـــاهد

المقدمـــــة

الحمد لله الذي عَلَّم بالقلم ، عَلَّم الإنسان ما لم يَعْلَم ، وأصلى وأسلِّم على الرَّحمة المُهداة ، والنِّعمة المُسداة ؛ سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه ومن والاه .

و بعد...؛

فما زال تُراث أسلافنا في الأندلس في حاجة إلى جهود حَثِيثَة لتحقيقه ونَشْره ؛ لِما في ذلك من إجلاءٍ للتُّراث الإنسانيّ ، وكَشْفٍ عن دور الأندلسيّين الرَّائد في مَوكُب الحضارة الإنسانيَّة بصفة عامة ، والإسلاميَّة بصفة خاصَّة ، لاسِيَّما أن النَّقد الأدبيّ الحديث ينزع – غالبًا – إلى القول بأنَّ الأدباء الأندلسيّين كانوا عَالة على المشارقة ؛ ساروا في ركابهم ، وترسَّموا خُطاهم ، ووقعوا في أَسْرِهم .

واليوم نُقدِّم دِراسة عن كتاب (تسهيل السَّبيل إلى تَعَلُّم التَّرسيل) لأبي عبد الله الحُمَيدِيّ الأندلسيّ ، المُتوفَّى سنة ٤٨٨هجرية ، بعد أن عانى الكتاب من ظُلْم الزَّمان ، وطُول النِّسيان ؛ أهمل القدماء النقل منه ، والتَّعويل في التَّنظير للرَّسائل عليه ، بينما التفت إليه بعض الدَّارسين المُحدَثين ، وتفاوتوا في تقدير أهميته ، والتنويه بقيمته وأثره ؛ فأشار الدكتور فؤاد سزكين إلى أنه يأتي في باكورة النَّوادر الهامة في ميدان الكتابة والمُراسلة ، وأشار الدكتور محمد رضوان الدَّاية إلى أهمية مقدمة الكتاب النَّقدية في دراسة النقد النَّثريّ الأندلسيّ ، وتناوله غيرهما بالدِّراسة الجُزئيَّة ، أو الإشارة الضِّمنيَّة ، في أثناء الحديث عن النَّثر العربيّ ، في القرن الخامس الهجريّ ، وكان آخر ذلك (التَّهاني والتَّعازي في تسهيل السَّبيل إلى تَعَلُّم

التَّرسيل) في رسالة جامعية في الجامعة الإسلامية في ماليزيا . بيد أنَّ هذه الإشارات وتلك الدِّراسات على جِدَّتها وطرافتها لا تروي عليلًا ، ولا تشفي غليلًا ، ومن ثَمَّ توجهنا إلى الكتاب بالدراسة والتحليل ، مُستوعبين الكتاب وقضاياه الموضوعيَّة والفنيَّة ، آملين أنْ نُنير لدارسيه الطَّريق ، وأنْ نَلقى من الرَّب التَّوفيق.

وقد قسَّمنا الدراسة إلى مُقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وفهرسين على النَّحو التَّالي:

المبحث الأول : وعنوانه (الحُمَيدِيّ حياته وأدبه) سلَّطنا فيه الضَّوء على نَسَبِهِ ، وجوانبَ من حياته وخصوصًا العِلمية ، وآراء العلماء فيه ، ولُمحًا من شعره .

المبحث الثاني : وعنوانه (تسهيل السَّبيل إلى تَعَلُّمِ التَّرسيل رُؤية موضوعيَّة) تناولنا فيه المقدمة النَّقدية للكتاب بالعرض والشَّرح والنَّقد ، وتناولنا موضوعات الكتاب رؤية وصفيَّة ، وأتبعناها بموضوعات الكتاب رؤية نقدية ، مع التعليل والموازنة ، والاستشهاد بالنَّماذج مع الاختصار والإيجاز، وأخيرًا الوحدة الموضوعيَّة والفنيَّة للكتاب وأبوابه .

المبحث الثالث : وعنوانه (تسهيل السَّبيل إلى تَعَلُّمِ التَّرسيل رؤية فنيَّة) تناولنا فيه الكتاب من زوايا نقديَّة ؛ فعرضنا أبرز الظواهر الفنيَّة في الكتاب منها: بناء الرِّسالة، الظَّواهر الأسلوبيَّة ، الظَّواهر التَّصويريَّة ، وغير ذلك من القضايا ، مع التَّعليل والتَّفصيل .

ثم جاءت الخاتمة متضمنة أهم النتائج وتلاها فهرسا المراجع والموضُوعات .

وقد كتبتُ الفصل الأول والثاني وتفضَّل الدكتور أحمد بكتابة الفصل الثالث .

وجدير بالذكر الإشارة إلى أن هذه الدراسة كانت جُزءًا من تحقيقنا للكتاب ، فلما تعذَّر علينا نَشْر الكتاب – إذ سُوق العلم كاسِدة ، وبضاعته راكِدة – آثرنا نشر الدِّراسة ، فما لا يُدرك كُلُّه لا يُترك كُلُّه .

والله حسبنا ونعم الوكيل

المبحث الأول

الحُمَيــديُّ حيــاتُه وأدبـُـه

نسبه :

الإمام القُدوة، المُتقِن الحافظ شيخ المحدِّثِين أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فَتُوح بن عبد الله بن فتوح بن حُمَيد بن يَصِل الأزدي الحُميديُّ، الأندلسِيُّ؛ المَيُورْقِي، الفقِيه، من الأئمة المشهورين ، يُكنى: أبو عبد الله ، و الحُمَيْديّ بضم الحاء المهملة وفتح الميم وسكون الياء المُثناة من تحتها وبعدها دال مهملة ، ويَصِل: بفتح الياء المثناة من تحتها وكسر الصاد المهملة وبعدها لام. (١)

(١) انظر ترجمته في : تاريخ بغداد وذيوله للخطيب البغدادي – تح: مصطفى عبد القادر عطا – ٢١/ ٢٥، – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١- ١٤١٧ هـ ، تاريخ دمشق لابن عساكر- تح :عمرو بن غرامة العمروي – ٥٥/٧٧ :٨١ – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م ، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال – تح : السيد عزت العطار الحسيني – ١/٥٣١،٥٣٠- مكتبة الخانجي – ط٢- ١٣٧هـ- ١٩٥٥م ، بغية الملتمس للضبي – ص١٢٣ – دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٦٧ م ، معجم الأدباء لياقوت الحموي – تح :إحسان عباس- ٢٥٩٨/٦، ٢٦٠٠ – دار الغرب الإسلامي . بيروت ط ١- ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م ، التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار- تح : عبد السلام الهراس -٤/٦٢ – دار الفكر للطباعة- لبنان١٤١٥هـ- ١٩٩٥م ، وفيات الأعيان لابن خَلِّكَان – تح :إحسان عباس – ٤/٢٨٢: ٢٨٤ – دار صادر . بيروت – ط١-١٩٧١ ، المغرب في حلى المغرب لا بن سعيد – تح :شوقي ضيف – ٢/٤٦٧، ٤٦٨ – دار المعارف – القاهرة – ط٣-١٩٥٥ ، سير أعلام النبلاء للذهبي –تح :مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط – ١٩/ ١٢٠، ١٢٧ – مؤسسة الرسالة – ط٣ – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥ م ، الوافي الوفيات للصفدي –تح :أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى -١٩/ ٢٩٥ – دار إحياء التراث – بيروت ١٤٢٠هـ ، تذكرة الحفاظ للذهبي – ٤/١٣، ١٥ – دار الكتب العلمية بيروت–لبنان ط١- ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م ، مرآة الجنان لليافعي – وضع حواشيه: خليل المنصور- ٣/١١٣، ١١٤ – دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط١- ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م ، نفح الطيب للمقريّ التلمسانيّ – تح : إحسان عباس -٢/ ١١٢: ١١٥ – دار صادر- بيروت – لبنان . ط١، ١٩٩٧م.

مولده :

ولد بمَيُورْقَة جزيرة بالأندلس قبل العشرين وأربعمائة ، وأصله من قُرْطُبَة من ربض الرُّصَافة حيث وُلِد بها أبوه ، يقول الحُمَيْدِيّ :" وَأَصلُ أَبِي مِنْ قُرْطُبَة مِنْ مَحَلَّةٍ تُعْرَفُ بِالرُّصَافَة، فَتحوَّل وَسَكَنَ جَزِيْرَة مَيُورْقَة، فَوُلِدْتُ بِهَا ".(١)

مكوناته الثقافية :

أسهمت بيئات متنوعة وثقافات متعددة في تكوين ثقافة الحُمَيدِيّ وبنائه العلميّ ، ونستطيع أن نلمح الروافد الأندلسية في تلمذته على جلة علماء الأندلس ومنهم أَصْبَغ بن رَاشِدٍ ، وابن عبد البر ، وأبي العباس العذري ، وكان أبرزهم أثرًا في نفسه هو ابن حزم الظاهري الذي لازمه وروى في الجذوة كثيرًا من آرائه الأدبية . (٢)

وفي حديثه في الجذوة عن الأدباء والشعراء والنقاد الأندلسيين ما يعكس صورة الروافد الأدبية في نفسه ، وأيضًا أسهمت الحجاز ومصر والعراق في هذه المكونات، فسمع بالحجاز و مصر والعراق عن كثير من العلماء (٣) ، وبدا أثر الروافد الأدبية

ذكر ابن خَلِّكَان أن بعض أرباب التاريخ أخبره أنه رأى في بعض التواريخ أن نسبته إلى حُمَيد بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وقال ابن خلكان إن هذا ليس بصحيح، = لأن أبا عبد الله المذكور أزدي النسب، وعبد الرحمن قرشي زُهري، فكيف يجتمعان؟.!انظر : وفيات الأعيان ٤/٢٨٤.

وهناك أندلسيّ آخر عُرف (الحَمِيدي) مع اختلاف الضبط فهوبـ (فتح الحاء المهملة، وكسر الميم) واسمه :عتيق بن علي بن الحسن. أبو بكر الحَمِيدي،الصِّنهاجي. من أهل الأندلس. قدم بغداد بعد الثمانين وخمس مائة، وأقام بها مدة يتفقه. وعمل مقامة يصف فيها بغداد وقدومه إليها، وسمعها منه جماعة. ثم إنه قدم مصر مرة ثانية، وعاد إلى بلاده،وكان أديبًا فاضلاً، وله ديوان شعر في مجلد .انظر ترجمته في : ١٧/ ١٣١ .

(١) انظر : سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٢٢.

ومَيُورْقَة : بفتح الميم وضم الياء المثناة من تحتها وسكون الواو وفتح الراء والقاف بعدها هاء ساكنة، وهي جزيرة في البحر الغربي قريبة من بر الأندلس.

(٢)انظر في ذلك : سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٢٢، تاريخ بغداد ٢١/ ٢٥، الصلة ١/ ٥٣٠ .

(٣) انظر في ذلك : تاريخ بغداد ١٢٠/١٩ .

المشرقية في استشهاده بالشعر القديم في كتابيه (الجمع بين الصحيحين) و (الذهب المسبوك في وعظ الملو)

الحُمَيديّ وعصره :

نشأ الحُمَيدِيّ في رحاب الدولة الأُموية في الأندلس ، وتنقل بين الحجاز ومصر والعراق في رحاب الدولة العباسية، مشاركًا في الحياة العلمية بمؤلفاته المتنوعة ، وإن غلب عليها الجانب الديني ، عازفًا عن المشاركة في الحياة السياسية في شتى مراحل حياته ، سوى ما سجله في مقدمة الجذوة من تاريخ الدولة الأندلسية ، وقصد من وراء ذلك رسم صورة واضحة وشاملة للحياة في الأندلس ، والاستعانة بالعصور السياسة في التأريخ الأدبي عند الضرورة(١) ، ونستطيع أن نعطي تصور لرؤيته في النقاط التالية :

١- رصد حكام الأندلس منذ الفتح حتى خروجه عنها ، ثم أمسك عنهم بعد ذلك لخروجه من الأندلس ولقلة الأخبار الواردة إليه عنهم .

٢- وثَّق الحُمَيديّ حديثه عنهم بالآثار والأخبار ، واستشهد على صحة الحوادث بالأشعار .

٣- رصد الحُمَيدِيّ عدة جوانب من حياتهم منها الأدبية والأخلاقية والسياسية .

شعـــره :

(١) انظر : جذوة المقتبس ص ٣.

ذكر محقق كتاب " جذوة المقتبس " (١) أن ابن شاكر الكُتبيّ (ت ٧٦٤هـ) قال : إن هناك ديوانًا للحُمَيدِيّ؛ ودعم المحقق هذا الرأي بما ذكره الذهبي (ت ٧٤٦هـ) في ترجمته للحُمَيدِيّ في كتابه سير أعلام النبلاء من أن له شعرًا .

وبالرجوع إلى كتب التَّراجم تبين لنا أنه لم يشر أحد من المترجمين للحُمَيدِي أنَّ له ديوان شعر غير الصَّفدي (ت ٧٦٤هـ)، لكن معظمهم أخبر بأنَّ له شعرًا رصينًا في المواعظ والأمثال ، وذكروا نماذج من شعره (٢) .

ولعل في هذا الاهتمام من جل المُترجمين بالحديث عن شعره ، وروايتهم لهذا الشِّعر عن الحُمَيدِيّ ، ما يُضيف إلى الحُمَيدِيّ الأديب ، وإن بقيت قضية الديوان محل أخذ ورد . وربما عزف المترجمون عن تفصيل ذلك لأنه نال الشُّهرة عالمًا لا شاعرًا ، وقصده الناس لأخذ الحديث عنه لا الأدب ، ومما يرشِّح ذلك أن شعره يدور في فلك شعر الفقهاء ؛ حول الفضائل والمواعظ والزهد ، كما أنه جاء في لغة مباشرة ، بعيدًا عن الخيال والتصوير ، ولم تنجح العبارات المتناثرة في كتب التَّراجم مثل (وكان مُتبحرًا في علم العربية والشِّعر) من تغيير حُكمنا على شعره.

وقد جمعنا له من كتب التراجم التي اطلعنا عليها ثمانية وثلاثين بيتًا شعريًّا – عدا ما في (تسهيل السَّبيل إلى تَعَلُّمِ التَّرسيل) من شعره – كلها تدور حول معان إسلامية ،

(١) السابق : المقدمة ص: ح.

(٢) انظر في ذلك :معجم الأدباء ٢٦٠٠/٦ ، تاريخ دمشق ٥٥/ ٨١ ، سير أعلام النبلاء ١٢٣/١٩ ، نفح الطيب ١١٤/٢.

وأهداف دينية . من ذلك قوله في الاقتصاد في معاملة الناس ، وتجنُّب الاختلاط بهم ، وترك الجلوس إليهم ، إلا لقضاء وطر، أو تَلَقِّي عِلم أوخبر: (١)

لِقَاءُ النَّاسِ لَيسَ يُفِيدُ شَيئًا   سِوَى الهَذَيَانِ مِنْ قِيلٍ وَقَالِ

فَأَقْلِلْ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إلا   لأَخْذِ العِلْمِ أَوْ لِصَلاحِ حَالِ

ويرى في حسن الاعتقاد ، الذي عليه نجاة العباد ، في يوم الميعاد ، أنَّه النَّهج القويم في اتباع القرآن والسنة، وما اتَّفق عليه سَلف الأمة :(٢)

كَلامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَولِي   وَمَا صَحَّتْ بِهِ الآثَارُ دِينِـي

وَمَا اتَّفَقَ الجَمِيعُ عَلَيهِ بَدْءًا   وَعَودًا فَهُو عَنْ حَـقٍّ مُبِينِ

فَدَعْ مَا صَدَّ عَنْ هَذَا وَهَذَا   تَكُنْ مِنْهَا عَلَى عَينِ اليَقِيـنِ

ومنه قوله عن أهل الحديث ودورهم في إصلاح القلوب ، وتهذيب النفوس، وإرشاد الناس إلى الخير والصلاح :(٣)

النَّاسُ نَبْتٌ وَأَرْبَابُ القُلُوبِ لَهُمْ   رَوْضٌ وَأَهْلُ الحَدِيثِ المَاءُ وَالزَّهَرِ

مَنْ كَانَ قَولُ رَسُولِ اللهِ حَاكِمُهُ   فَلا شُهُودَ لَـهُ إلا الأُلَى ذُكِرُو

وفـــاته :

(١) الصلة ٥٣١/١ ، وفيات الأعيان ٢٨٣/٤ ، المغرب في حلى المغرب٢/ ٤٦٨ ، سير أعلام النبلاء ١٢٦/١٩ ، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٥ ، مرآة الجنان ٣/ ١١٤ .

(٢) معجم الأدباء ٢٦٠٠/٦ ، سير أعلام النبلاء ١٢٦/١٩ ، نفح الطيب ٢/ ١١٥.

(٣) انظر : نفح الطيب ٤/ ٣٣٧ : ٣٣٩. وفي الإلماع : (الناس نبت وأرباب العلوم معًا) وهي رواية أحسن لأنه يوازن بين علم الحديث وسائر العلوم . الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع – القاضي عياض بن موسى اليحصُبي – ص٥٦– تح :السيد أحمد صقر – ط ٣–مكتبة دار التراث – ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

تُوفي ببغداد ليلة الثلاثاء ، سابع عشر ذي الحجة ، سنة ثمان وثمانين وأربع مائة ، ودفن بمقبرة باب أبرز بالقرب من الشيخ أبي إسحاق الشيرازي ، ثم نقل إلى باب حرب ، ودُفن عند قبر بِشر الحافي(١) مخلفًا وراءه مؤلفات عديدة ومتنوعة ، منها : كتابه (تسهيل السَّبيل إلى تعلم التَّرسيل) الذي سنتناوله بالدراسة والتحليل .

(١) ذكر ابن خَلِّكَان في وفيات الأعيان أنَّ السَّمعاني قال في كتابه الأنساب في ترجمة الحُمَيدِيّ: إنه توفي في صفر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى، يقول ابن= خلكان: هكذا وجدته في المختصر الذي اختصره أبو الحسن علي بن الأثير الجزري – المقدم ذكره – وكشفت عنه عدة نسخ فوجدته على هذه الصورة، لأني توهمت الغلط في نسختي، ولم أقدر على مراجعة الأصل الذي لابن السمعاني الذي هذا المختصر منه، لأنه لا يوجد في هذه البلاد، وبقي في نفسي شيء من التفاوت بين التاريخين، فإنه كبير. ثم إني كشفت كتاب الذيل للسَّمعاني فوجدت فيه أن الحُمَيدِيّ المذكور توفي ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وعلمت أن الغلط وقع من ابن الأثير في المختصر: إما لأن النسخة التي اختصرها كانت غلطا من الناسخ، فتتبع ابن الأثير ذلك الغلط ولم يكشفه من موضع آخر، أو لأنه عبر من سطر إلى سطر كما جرت عادة النُّساخ في بعض الأوقات، والله أعلم أي ذلك كان. انظر وفيات الأعيان ٢٨٢/٤ .

المبحث الثاني
تسهيل السَّبيل إلى تعلُّم التَّرسيل
رؤية موضوعية

أولاً : مُقدمة الكتاب :

اشتملت مقدمة الحُمَيدِيّ على عِدَّة موضوعات ، كان في صدارتها بيان الغرض من تأليف كتابه ، والحديث عن منهجه، والوقوف على مفهوم البلاغة والبيان ، والفصاحة والكتابة والظرف ، والأدب والعلم ، فهي خلاصة اللُّباب ، ومقصد الطلاب ، ولا غنى عنها لقاصد هذا العلم ، والرَّاغب في إجادة ذاك الفن ، وتصدَّى بعد ذلك لذكر آلات الامتثال ، وما تحتاج إليه صناعة البيان ، ومعرفة طُرف الظرفاء ، ونُكت البُلغاء ، وأخيرًا ذكَر الوصاية بالمداد والقلم والورق ، ثم ذيَّل هذه المُقدمة بفهرس عام لأبواب الكتاب وفصوله. وإليك تفصيل هذه الموضوعات التي اشتملت عليها المُقدمة .

(أ) الغرض من تأليف الكتاب :

والغرض من تأليف الكتاب أشار إليه العنوان إشارة واضحة ، ونصَّ الحُمَيدِيّ عليه في المُقدمة ، فذكر أنَّه أراد أن يُقدِّم في هذا الكتاب أمثلة تكون بمثابة قوانين للكُتاب ، ونماذج لتمرُّس من أراد أن يُجيد فن البيان (النثر الرَّسائلي) ، فيسهل عليه قياده ، ويتأتى له مراده ؛ فهي تُعينه على تهذيب لفظه ، وتَقوِيم لسانه ، وعِمارة جَنانه ، وتمدُّه بضروب من الأساليب ، وأفانين من المعاني في مختلف الأغراض ، يقول الحُمَيديّ: " فإنِّي استخرتُ الله عزَّ وجلَّ بفضل ما أعطانيه من الهِمَّة، وبَسَطَ لي من النِّعمة ،أن أُمَثِّل في هذا الكتاب أمثلة ، وأُفَصِّل فصولاً ، تكون قوانين لِمَن أراد تَحْسِين لَفْظِهِ ، وتقويم لِسَانِهِ ، ومُدَارَاة أهل زمانه ، بحُسْنِ

التَّلَقِّي لهم ، وجميل التَّحفِّي بهم ، فيقوى بذلك لِسانُه إن خاطب ، ويَتَّسِعُ فكرُه إنْ كَاتَبَ."(١)

وقد وهِم الدكتور محمد رضوان الداية في دراسته عن الكتاب حين ذهب إلى أن الحُمَيدِيّ " وضع بين أيدي المتعلمين أمثلة يحتذونها إن أرادوا إحكام فن الخِطابة أو الكِتابة ، فنوَّع في أمثلته لتشمل الأغراض الإخوانيّة والسلطانيّة "(٢) ؛ لأن الحُمَيدِيّ قصد الخِطاب لا الخَطابة ، واقتصر على الرسائل الإخوانية دون السُّلطانية . وإذا كان عنوان الكتاب يوحي بعموم تلك الأمثلة واشتمالها على كافة ألوان الرسائل (الديوانيَّة والإخوانيَّة) فإنَّ الحُمَيدِيّ قد أشار في مقدمته إلى أنَّ هذه الأمثلة تقتصر على الرسائل الإخوانية يقول : "وتقصَّينا في ذلك أكثر ما يحتاج إليه أهل المشاركة والإخاء " (٣) وعاد في خاتمة كتابه ليؤكد أن كتابه سيقتصر على الرسائل الإخوانية فقط ، وأنَّه ينوي التأليف – بعد فراغه من هذا الكتاب– في الرَّسائل الديوانية أو السُّلطانيَّة يقول : " وكتابنا هذا من النَّوع الرَّسائلي في القسم الإخوانيِّ خاصَّة ، وإن أمَّدنا الله بفراغ ومُدَّة وعون فسنُجهد أنفسنا في أمثلة القسم السُّلطاني"(٤).

(ب) منهج الحُمَيدِيّ في كتابه:

لخَّص الحُمَيدي منهجه في عبارة وجيزة ، ولفظ لطيف ، قال : " ... وتقصَّينا في ذلك ما يَحتاج إليه أهل المُشاركة والإخاء ، في المُكاتبات واللِّقاء ، من المُقدِّمات والدُّعاء ، وجعلناه مُفردًا مِن إنشائنا خاصَّة، بألفاظ سهلة، ومعانٍ قريبة ، يستوي في الانتفاع بها الخاصَّة والعامَّة ؛ لِسُرعتها إلى الفهم ، وبُعْدِهَا من التَّقْعِير ، وربَّما أدَّى الكلام في

(١) مخطوط تسهيل السبيل إلى تعلم الترسيل – الحميدي – لوحة رقم ٢– مكتبة عاطف تركيا رقم ١٣٩٢.
(٢) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس – محمد رضوان الداية – ص٣٣٣– ط١– دار الأنوار بيروت – ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م.
(٣) تسهيل السبيل لوحة رقم ٢.
(٤) السابق لوحة رقم ٢ ، ولوحة رقم ١٩٤.

ذلك إلى ذكر مثال من الأمثلة لِمن تَقَدَّمَ ، فنسبناه إلى صاحبه ، وأسندناه إلى مُنشئه".(١)

ويمكن أن نُلخص منهج الحُمَيدِيّ في النِّقاط الآتية :

١. محاولة تقصي ما يحتاج إليه كُتَّاب الرَّسائل الإخوانية ، من مُقدمات وأدعية . وهو في تقسيمه الموضوعي العام هذا يعتمد على من سبقوه في التقعيد لهذا الفن ، لكنه يتقدمهم ويتميز عنهم في التفريع والتفصيل ، وإضافة مناسبات جديدة ، واعتماده في تقديم أمثلته على إنشائه فحسب .

٢. التزام الألفاظ السهلة ، والمعاني القريبة ، الأمر الذي يسمح باتساع مساحة الإفادة والانتفاع بالكتاب ؛ فيفيد منه و ينتفع به كل الكُتَّاب (العامة والخاصة) .

٣. التوثيق وأمانة النقل حتى في النذر اليسير ، فينسب كل قول لصاحبه .

(ج) مفاهيم و مصطلحات:

هذا هو الموضوع الثالث الذي عُني به الحُمَيدِيّ في مقدمته ، فهو يقف عند العديد من المصطلحات البلاغية المشهورة ، يدفعه إلى تلك الوقفة – ظنّه – صعوبة فهمها ، وخمود علمها ، مع شدة الحاجة إليها .

وأول هذه المصطلحات : مُصطلح البلاغة:

وقد استحسن في تعريفها رَأْي ابن حزم ، رَأَى فيه دقة لفظه ، واستيعاب حده ، يقول : " البلاغة ما فهمه العَاميّ كفهم الخَاصيّ ، وكان بلفظ يَتَنَبَّه له العَاميّ لأنه لا عهد له بمثله ، ويَتَنَبَّه له الخَاصيُّ لأنه لا عهد له بمثل بدائع نظمه ومعناه ، واستوعب المراد كله ، ولم يزد فيه ما ليس منه ، ولا حَذَف مما يحتاج إليه في ذلك المطلوب شيئًا ، وقَرُب على المخاطب فهمه لوضوحه، وتقريبه ما بَعُدَ وكَثُرَ من المعاني ، وخَفَّ عليه

(١) السابق لوحة رقم ٢.

حفظه ؛ لِقِصَرِهِ وسهولة ألفاظه ، ومِلاك ذلك الاختصار لمن يفهم والشرح لمن لا يفهم ، وترك التَّكرار لمن قَبِلَ ولم يَغْفُلْ ، وإدمانُ التَّكرار لمن غَفَل أولم يَقْبل ".(١)

جاء التعريف مُفسحًا مساحة كبيرة للمتلقي وحاله ، وقدرته على التجاوب، فدار على الاهتمام بمراعاة حال المخاطب مع عدم الإخلال بالمضمون ، مع حسن اللفظ، وجودة الرصف .

ثم يتابع ابن حزم في لون من ألوان تقسيمها ؛ وهو تقسيم باعتبار اللغة والأسلوب ؛ مِن استخدام ألفاظ معروفة مألوفة ، أو استعمال ألفاظ غريبة غير مألوفة ، أو ما جاء مزيجًا من هذا وذاك يقول : " وهي على قسمين ؛ قسم مائل إلى الألفاظ المعهودة كبلاغة عمرو بن بحر ، وقسم مائل إلى الألفاظ غير المعهودة كبلاغة الحسن بن سهل ، وربما حدث بينهما قسم ثالث يأخذ منهما جميعا كبلاغة المترجم لكتاب كليلة ودمنة "(٢).

ثُمَّ يسوق تعريفًا للبلاغة للرُّمانيّ من غير نسبته إليه يقول : " وقد قال بعضهم : البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ "(٣) ثم يعلق عليه قائلًا: "وهذا هو حدُّ البيان نفسه "(١).

(١) تسهيل السبيل لوحة رقم ٣ .وقد نقل هذا التعريف من ابن حزم ولم يصرح باسمه انظر : التقريب لحد المنطق لابن حزم – ص١٨٩– تح: أحمد فريد المزيدي – ط١ – دار الكتب العلمية بيروت – ٢٠٠٢م– ١٤٢٤هـ .مع اختلاف يسير أولاه بالتسجيل زيادة الحميدي = (ويتنبه له الخاصي) ، فما السِّر وراء هذه الزيادة ؟ ، وقد عزا الدكتور محمد رضوان الداية إغفال الحُمَيدِيّ ذكر ابن حزم إلى ما تعرض له ابن حزم من هجوم حاد بسبب مذهبه الظاهري الذي يدين به الحُمَيدِيّ، معتمدًا في ذلك على ما جاء في سير أعلام النبلاء ونفح الطيب ، وليس هنا محل الفصل في القضية. انظر : تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ص ٣٣٤ ، وسير أعلام النبلاء ١٢٥/١٩ ، ونفح الطيب ١١٣/٢ .

(٢) تسهيل السبيل لوحة رقم٣. وانظر التقسيم في :التقريب لحد المنطق ص١٩٠ .

(٣) تسهيل السبيل لوحة رقم ٣ . وهذا التعريف شاع بين النقاد كأبي هلال العسكري وابن رشيق والوطواط، وأول من أثاره الرُّماني . انظر : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر ص٧٦–

ذهب الحُمَيدِيّ إلى أن هذا التعريف يخلط بين البلاغة والبيان ، ويرى – وحُق له – أنه ينطبق على البيان أكثر من البلاغة ؛ لأنه متعلق بالمعنى أكثر من تعلقه بالمخاطب واللفظ . وإن كان الأثر النفسي يشع من التعريف – وهو ما يعكس التفاتة مبكرة إلى الأثر النفسي للبلاغة ، كما يرى الدكتور إحسان عباس(٢) – فإن هذا الأثر يبدو باهتًا لا يكاد يَبين ، أضف إلى ذلك أنَّ البيان أعم من ذلك ، إذ البيان لا يقتصر على الألفاظ فحسب ، بل قد يكون بلفظ وبخط وبإشارة ؛ ومن هنا يطرح تعريفًا آخر للبيان أسقط منه كون البيان باللفظ ، فشمل بذلك كل أنواع البيان ، وهو قول بعضهم :" إنَّ البيان كشف المعنى وإحضاره للنفس حتى تدركه بسرعة لا غفلة معها "(٣)

لكنه يرى في هذا التعريف أيضًا قصورًا من حيث الصياغة ، ويقترح أن يكون: "انكشاف المعنى وحضوره للنفس ".(٤) فهذا أوعب لمعناه ، وأنسب لحدِّه .

ثُمَّ يذهب الحُمَيدِيّ إلى أن البلاغة كما تختلف من مخاطب إلى آخر ، فإنها كذلك تختلف من فن إلى آخر، فيقسمها باعتبار الفنون ، يقول : " والبلاغة تنقسم ثلاثة أقسام ، وقد كان هناك قسم رابع فبَطَل ، وهو بلاغة الكُهَّان ، والأقسام الثلاثة

تح: محمد خلف الله أحمد – محمد زغلول سلام – ط٣ – دار المعارف مصر .، وقد أورده قبله علي بن خلف مع استبدال النفس بالقلب. انظر : مواد البيان– علي بن خلف الكاتب – ص٩٦– تح – حسين عبد اللطيف – منشورات جامعة الفاتح – ليبيا – ١٩٨٢م

(١) تسهيل السبيل لوحة رقم ٣.

(٢) انظر : تاريخ النقد الأدبي عند العرب – إحسان عباس – ٣٤٠/١ – ط٤ – دار الثقافة – بيروت ١٩٨٣م.

(٣) تسهيل السبيل لوحة رقم ٣ . وهو متأثر في تعريف البيان بما قاله الرُّماني . انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١٠٦ ، وانظر في تعريف البيان : العمدة لابن رشيق – ٢٥٤/١– تح : محمد محيي الدين عبد الحميد – ط٥ – دار الجيل – بيروت – ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(٤) تسهيل السبيل لوحة رقم ٤.

بلاغة خُطَبِيَّة وبلاغة تأليفية وبلاغة رسائلية ، فالخُطَبِيَّة جِدٌّ محض ، ولسنا من أهذار عبد الخالق وأبي العبس وأمثالهما في شيء ، والتأليفية تَقْرُب من الخُطَبِيَّة وهي تنقسم قسمين : قسم جِدٌّ وقسم هزل ، والرسائلية ثلاثة أقسام : سُلطانيَّة لا هزل فيها ، وإخوانيَّة تنقسم على جِدٌّ وهزل ،ورقيق وهي رسائل المتغزلين ، وهي هزل محض"(١). وهذا التقسيم مستقى من تفسير ابن المقفع للبلاغة بأنها قد تكون في عدة أشياء فمنها ما يكون شعرًا ، ومنها ما يكون خطبًا ، ومنها ما يكون رسائل(٢) .

وأخذ الحُمَيدِيّ يشرح حدود كل نوع ، فإذا كانت البلاغة في الخطابة تعتمد على قوة الإيراد، ووضوح المعنى ، وثبات الجنان ، وسرعة البديهة ، فهي في التأليف تميل إلى شرح المستغلق ، وإيضاح المبهم ، وسوق الحجج ، وحسن التصوير ، بينما في الرسائل تنحصر في استمالة المخاطب ، وتسهيل ما صعُب على المراسَل .

وانتقل بعد ذلك إلى المصطلح الثالث وهو : مصطلح : الفصاحة وحدوده، فجعلها في استخدام الألفاظ الدقيقة ، والمترادفة ، والشريفة ، وعدم الوقوع في اللحن ، والبُعد عن الابتذال، يقول : " وأما حدُّ الفصاحة فهو تخير الألفاظ المتمكنة من دقائق تصاريف المعاني التي لا تعرفها العامة ، ولا يخفى عليهم مع ذلك فهمها مع التَّوسع في اللغة وعدم اللحن ، والاجتراء على معرفة أسماء المترادفة في اللغة، وهي التي تختلف ألفاظها وتتفق معانيها ، ويعبر الفصيح بما أراد منها عن المعاني التي يريد إيرادها ، وتكون تلك الألفاظ مما لا تستعمله العامة ولا أكثر الخاصة ، ولا يبعد مع ذلك عن أفهامهم ، وألا يستعمل الألفاظ المعهودة المبتذلة إلا حيث لابد منها " (٣).

(١) السابق لوحة رقم ٤.

(٢) انظر: الصناعتين لأبي هلال العسكري – ص١٩ – تح : علي محمد البجاوي – ط١– المكتبة العصرية بيروت – ٢٠٠٦م –١٤٢٧هـ .

(٣) تسهيل السبيل لوحة رقم ٤.

وقد قصرها على تمام آلة البيان ، وعدم اللحن ، واجتناب ما تستعمله العوام ، مع عدم التعلق بالمعنى ، وهو بذلك سائر على درب البلاغيين ، مترسم لخطاهم .(١)

ثم عقد موازنة بين البلاغة و الفصاحة ، بين فيها ما تشترك فيه البلاغة والفصاحة ، وما تنفرد به الفصاحة ، ثم ما تنفرد به البلاغة ، واختلاف البلاغة باختلاف اللغة والعصر والمصر ، وقد استطرد في ذلك ، ولكنه جرى في ذلك على الشائع عند البلاغيين ، من أنَّ البلاغة مُتعلقة بالمعنى والفصاحة مُتعلقة باللفظ .

وينتقل إلى المصطلح الرابع وهو : مصطلح : الكتابة ، فيعرفها قائلاً :" وأما الكتابة فهي التصرف في معاني الخطاب ، ومقابلة كل طبقة بما يُؤَثِّر في أنفسها ، ويستميل خواطرها مع جودة الخطِّ ، فإن انضاف إلى ذلك سرعة الخاطر وقوة البديهة ، كان أتم لما تقتضيه الصناعة ، وتوجبه الرُّتبة " (٢) وهو حديث قريب مما أورده ابن عبد ربه (ت٣٢٨هـ) عن منهج العرب في الكتابة يقول : " إذا احتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكتاب والخطباء والأدباء والشعراء ، وأواسط الناس وسوقتهم فخاطب كلا على قدر أبهته وجلالته ،وعلوه وارتفاعه ، وفطنته وانتباهه "(٣) .

ويخلُص سريعًا إلى المصطلح الخامس وهو : مصطلح : الظُّرف ، وهو حفظ ما وقع للعرب حتى عصره من نوادر ظريفة ، وحكايات طريفة ، مع حسن إيرادها، وبراعة سَوقها يقول : " وأما الظُّرْفُ فليس إلا جَمْعُ المُلَحِ والاشتغال بالظُّرف وتحسين إيرادها في أوقاتها بذهن ذكي ولفظ مُصيب " (٤).

(١) انظر : الصناعتين ص ١٤ .

(٢) تسهيل السبيل لوحة رقم ٦.

(٣) العقد الفريد – ابن عبد ربه – ٤/١٨٠ – ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤م.

(٤) تسهيل السبيل لوحة رقم ٦.

ويؤكد على أهمية الظرف فيقول : " وإذ ذلك كذلك فله اتصال ضروري مما لا يستغنى عنه من العربية " (١).

ويعرف الأدب ويجري في تعريفه على قصد القدماء ، وكانوا يقصدون به الثقافة العامة ، والأخذ من كل فن بطرف (٢)، يقول الحُمَيدِيّ : " وأما الأدب فالمُشاركة في الأصول والإكثار من الفنون ، والأخذ في كل معنى ، والسلوك في كل أسلوب " (٣).

ويصل إلى المصطلح الأخير وهو العلم ويحصره في كثرة الرواية لمسائله، والدِّراية بأصوله والتوسع في فروعه .(٤)

(د) ذكر آلات الامتثال وما تحتاج إليه صناعة البيان :

قدَّم تحت هذا العنوان أدوات صناعة الكتابة ، والعلوم التي لا غنى عنها لمزاول المِهنة ؛ من معرفة بأصول النحو التي تدفع اللحن ، والسِّياحة في لغة العرب ، والعلم بفاخر الألفاظ وساقطها ، ومتخيرها ورديِئها ، ومعرفة النَّوادر والطُّرف ، والأشعار والأخبار ، والتَّمرس على أساليب القدماء ، والإحاطة بطُرقهم في تشقيق المعاني ، و نثر المنظوم ، ونظم المنثور ، وإبداع التصوير ، وتوشيح المعنى .

ثم يقدم وصية يتناقلها شُداة هذا الفن ، وهي تدور على توظيف المعرفة في النص على النحو التالي :

(١) تسهيل السبيل لوحة رقم ٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون – ص٥٩١– تح:هيثم جمعة هلال – ط١ – مؤسسة المعارف بيروت – ١٢٢٨هـ – ٢٠٠٧م، ومن هذا السبيل عنون كارل بروكلمان كتابه (تاريخ الأدب العربي).

(٣) تسهيل السبيل لوحة رقم ٦.

(٤) السابق لوحة رقم ٦.

١- الإحسان في اختيار العنوان .

٢- حُسن الابتداء ، وجمال الانتقال ، وبراعة الانتهاء .

٣- تجنب الإغراب في الإعراب .

٤- مراعاة المناسبة بين الحروف ، والقرابة بين الكلمات والجمل .

٥- اختيار بديع اللفظ وشريف الكلام .

٦- براعة النسج ، وإخفاء الأخذ . (١)

ويؤكد أخيرًا أن أمثلة هذا الكتاب لم يتوافر فيها ما دعا إليه في هذه الوصية ؛ وذلك لأنه قصد بها تدريب المبتدئين ، وتعليم الطالبين ، وربما هَدَتْ سهولة الألفاظ ، وقرب المأخذ إلى الوصول إلى الهدف والمقصد .

(هـ)ذكر الوصاة بالمداد والقلم والورق:

وتحدث فيه عن التَّأثير البصري للصحيفة على المُتلقي ، وإمكانية أن يكون جمال الورق والخط ذا تأثير يعاون النَّص ، ويُمَكِّن للفكرة، ومن ثَمَّ دعا إلى حسن اختيار القلم وبريه ، وقدم مثالا من الأندلس يدل على أهمية ذلك .(٢)

و بعدُ ...؛

فهذه المقدمة على ما فيها من قيم ذائعة ، ومعاني رائعة ، لا تعدو أن تكون حديثًا معادًا أو منقولًا من السابقين (١) ومن ثَمَّ أضم صوتي إلى صوت الدكتور محمد

(١) تسهيل السبيل لوحة رقم ٦.

(٢) السابق لوحة رقم ٩.

رضوان الدَّاية من أنَّ "هذه المقدمة القصيرة التي صَدَّر بها الحُمَيدِيّ لكتابه قد لا تُقدِّم جديدًا من رأي نقديّ أو ملاحظة ذوقِية خاصَّة ، فكل ما فيه أو مُعظمه من المُتقدِّمين عليه مشارقة أو أندلسيين "(٢) .

(و) موضوعات الكتاب رؤية وصفية :

قسم الحُمَيدِيُّ كتابة ثمانية أبواب على الترتيب التالي : (مثالات أدعية الأوقات – في أمثلة اللقاء وتصنيف أهله في الدعاء – في شذور التهنئة بأحوال السرور – فيما يجري مجرى تسلية المحزون – فيما يقال عند إرادة الأفعال – في أسباب الوداد ونتائج حسن الاعتقاد – في أمثلة أصناف التعزية – في مفردات نوادر المخاطبات) وقسم الأبواب إلى فصول يتفاوت عددها من باب لآخر ، فالباب الأول والسادس فصولهما ستة عشر ، والثاني فصوله عشرة ، والثالث أربعون ، والرابع والسابع والثامن فصولها سبعة ، والخامس فصوله ستة.وسوف نعلل لهذا التفاوت في عدد الفصول في الحديث عن بنية الرسالة .

الباب الأول في مثالات أدعية الأوقات ، جمع فيه الحُمَيدِيّ مناسبات التراسل في اليوم والليلة (الصباح – النهار – المساء – الليل – وقت النوم – وقت الاستيقاظ) ثم جمع فيه المناسبات الإسلامية التي يتبادل فيها الناس التهاني (عند إهلال الهلال – وقت الصيام –وعند إهلال هلال الصوم – ويوم الفطر– وفي عيد الأضحى) ثم جمع المناسبات المُجتمعية العامة الأخرى :(عند دخول العام – النيروز – يوم

---

(١) فهو مثلا متأثر في حديثه عن مراعاة الرُّتب ، ومعرفة النحو ، ولغة العرب ، بابن قتيبة في أدب الكاتب ، انظر: أدب الكاتب لابن قتيبة – ١٤،١٧، ١٨– تح : محمد الدالي _ ص٢٥ – مؤسسة الرسالة – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، ومسبوق في حديثه عن الدواة والقلم =

والسكين بما أورده ابن عبد ربه وابن النديم وغيرهما ، انظر : العقد الفريد ١٧٢/٤ ،١٧٣ ، والفهرست – لابن النديم – ص٣٦ – تح: ناهد عباس عثمان – ط١ – دار قطري ابن الفجاءة – ١٩٨٥ م، ومواد البيان ص ٤٨١.

(٢) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس – محمد رضوان الدَّاية ص٣٣٧ .

المِهْرَجَان). ورسائل هذا الباب جاءت قصيرة وموجزة ، كبرقيات التهنئة التي يتبادلها الناس في عصرنا في المناسبات العامة . وصَدْر الرسالة جاء – غالبًا – مستوعبًا لأفراد المجتمع ، والعبارة الافتتاحية توزعهم بين (أمير – عظيم أو وجيه – مخاطب عادي) ، من ذلك يقول في تهنئة بالنيروز " كأنَّ هذا النَيْرُوز قد فهم إقبالك ، واعتقد إجلالك، فأبدى إليك عجائب زَرَافَاته ، وتبدَّى لك في بدائع بهجته وأُبَّهاته، فلا زالت السُّعود تتكرَّر عليك، والفُصول تعود بزينتها إليك ، والدُّهور تتحلَّى بك ، والسُّرور يتصدَّى لك " (١)

والباب الثاني في أمثلة اللقاء ، جمع فيه الحُمَيدِيّ ما يقال عند اللقاء على حسب أقدار الأشخاص ورُتبهم ومكانتهم في المجتمع(في اللقاء دون تصنيف – للخلفاء – للوزراء – للأمراء – للقضاة – للعلماء – للزهاد – للأدباء – للتجار – للصناع) استوعب في ترتيبه وأمثلته كل طبقات المجتمع مُرتِّبًا من الأعلى إلى الأدنى ، ولسنا ندري هل هذا الترتيب يعكس ما يجب أن يكون عليه المجتمع الفاضل في عين الحُمَيدِيّ ؟ أو أن الحُمَيدِيّ كان عدسة ناقلة لما يجري بين أفراد المجتمع من حوله ؟ . ومن أمثلة ذلك قوله تحت عنوان ما يقال للوزراء: " بحضرة الوزارة السَّعيدة ، والدَّولة الحميدة ، حَيِيَتْ رُسوم الرِّئاسة ، وثَبَتَتْ مناهج السِّياسة ، وانفسحتْ المراتب ، واتَّضحتْ المذاهب ، وانتشر خامل العدل ، ونُشِرَ مَواتُ الفضل ، وصَحَّ للخلافة العالية جَمَالها ، وكَمُلَتْ آمالُها ، فقرن الله سعادة الحضرتين بالتَّمَام ، وحرسهما من غِيَرِ الأيام ، وجمع لسيدنا الوزير أشتات السُّرور ، وعَرَّفَه من أشدِّ الأمور، ومحاسن التَّدبير ، وسدَّده لمقاصد سُلطانه ، وجدَّد عنده عوارف إحسانه ، حتى يتمَّ له ما تمنَّاه ، ويدوم له ما تولَّاه." (٢)

(١) تسهيل السبيل لوحة رقم ٢٦ .

(٢) تسهيل السبيل لوحة رقم ٣٠ .

الباب الثالث في شُذور التهنئة بأحوال السُّرور ، التي تمرّ بالإنسان، فينتقل بها من حال إلى حال ، عندما ينال هدفًا ، أو يحقق أربًا ، أو يصيب منصبًا أوغُنمًا ، فيتبادل فيها الناس التهنئة ، منها :(النِّكاح – الهِداء – وبمولود – القُدوم من سفر – من اشترى دارًا – في شراء دابة) ، والغالب على موضوعات هذا الباب الالتحام بشرائح المجتمع وطبقاته الدُّنيا ، وشموله للمناسبات الخاصة التي يمرُّ بها أفراده ، من أمثلة ذلك ما أورده تحت عنوان تهنئة قادم من سفر:" اليوم عاد إلى الأيام بهجتُها ، وإلى العلياء غُرَّتُها ، وإلى الدُّنيا سُرورُها ، وإلى الليالي نُورُها ، وتزيَّن الروض بالنَّوار، والأرض بالاخضرار لأوبة مولاي التَّامة عُلاه، المحمودة إقامته وسُراه ،الذي تتنازعه الأقطار، كما تتنازع الأوطار ، وتتمنَّاه الجهات كما تتمنَّى الأمنيَّات ، ولمَّا تطلَّع في هذه الآفاق ، سطعتْ بالإشراق ، فالحمد لله ، قد أنصف الدَّهر أهليه ، وخصَّ هذا الصُّقع(١) بأمانيه ، وهنيئًا لمولاي علاه ، ولنا مَرآه ، أدام الله له السُّرور ، وأبهج بغرَّته الدُّهور ، وأثلج بعزَّتهالصُّدور ، وعمَّر به الأوطان، ووالى عليه الإحسان، في دوام سعد وبقاء، وغِبْطَةٍ واعتلاء ."(٢)

الباب الرابع فيما يجري مجرى تسلية المحزون ، وجمع فيه الحوادث المُهمَّة ، والنوازل المُلمَّة ، وما يمر بالإنسان من أزمات وانكسارات تجلب الحزن والألم ، وتُصيب بالأسى واللوعة وهي : (تسلية معزول – مسجون – مظلوم – مريض – من نكح أبوه أو أمه – من انصرف من حج دون أن يُتمه – من غزا فلم يفتح له) ومن أمثلة ذلك قوله في تسلية مسجون :" الحُرُّ – أمدَّ الله مولاي بمواد الاستقلال ، وأعاده إلى أفضل الأحوال – وإن كان مُمتحنًا بالنَّكبات ، مَحطًّا للمكرُوهات ، فصبره أُسُّ لأسى الأدواء ، بأدوية الرَّجاء ، وقد علم الله عزَّ وجلَّ حرَّ أُوَارِي ، وعظيم صَغَارِي ، ولكن عند الشَّدائد ، تنتظر الفوائد ، ولا يأيس من رَوْح الله ، إلا من كفر بأنعم الله ،

(١) الصُّقع : جانب الأرض والناحية . اللسان (صقع) .

(٢) تسهيل السبيل لوحة ٧٤.

فهو – أيَّده الله – في رجائه بالله ، وإخلاصه لله ، يُسلِّم ويتصبَّر ، ويتقدَّم إلى شكر الله ولا يتأخَّر ، أطلق الله سبيله ، ولا حَيَّر في البُشرى دَليله ، وكفاه سريعًا وَجَلَهُ ، وبلَّغه في كلِّ شيء أَمَلَه . "(١)

الباب الخامس فيما يقال عند إرادة الأفعال ، جمع فيه الحُمَيدِيّ ستة أنواع (فيمن أراد سفر بر كحج أو غيره – من أراد سفرًا عامًا – الدعاء عند إرادة الرحيل للحج – للغزو – للسفر العام – لمن أراد أن يعقد عقدًا) وكان من الممكن أن يختصره الحُمَيدِيّ في عنوان واحد ، إذ كل أغراضه تدور حول التِّرحال والسَّفر ، ولكن الحُمَيدِيّ شقَّق منه أغراضًا، وفرَّع منه أنواعًا ، وهذا مذهب حسن لمن سلك مسلك التعليم ، وقصد التهذيب والتقويم .

والناظر إلى العناوين يخال الحُمَيدِيّ كرر فيها ، فنرى (من أراد سفرًا عامًا – الدعاء لكل مسافر) ولكن النظرة المتأنية تكشف أن النوع الأول رسالة وداع ، والنوع الثاني رسالة دعاء ، ومنه تحت عنوان الدعاء لكل مسافر :" خفَّف الله عن مولاي مؤونة السَّفر ، ومَنَّ عليه بقضاء الوطر، وخلفَهُ بأحسن الخلافة في الأهل والمال ، وبلَّغه في تصرفاته غاية الآمال ."(٢)

الباب السادس في أسباب الوداد ونتائج لحسن الاعتقاد ، فصوله ستة عشر ، منها: (ما يكتب مع الهدية – في الاستزارة – في وصف الشوق والفراق – في الشكر – في العتاب) وقد اعتمد في أمثلة هذا الباب على الإطناب، ربما لأن المناسبة تتحمل التفريع ، والأخذ والرد ، وربما لأنها تحمل انفعال الحُمَيدِيّ نفسه في تجارب سابقة، فأدرجها في تلك النماذج ، من ذلك قوله تحت عنوان في ابتداء عقد الود ، وهي طويلة اخترت منها: " إنَّ الفضائل – أدام الله عزَّ مولاي – أجلبُ لقلوب الرجال ، من

(١) السابق لوحة رقم ١٠٣.

(٢) السابق لوحة رقم ١٢١.

مُجَرَّد النَّوال ، وأَهيبُ في كلِّ صدر ، من النَّهي والأمر ، ومحاسنها أقرب من النُّفوس، وأسرع إلى التَّأنيس ، وقد جمع الله منها لمولاي ما به يبدأ في الحساب ويختم ، ومنه مُتعاطي كلَّ فضيلة يتعلَّم ، ولذا صار مولاي للمجد مَوردًا ، وللحمد مَقصدًا ، وللزَّمان عينًا ، وللأوان زينًا ... "(١)

الباب السابع في أمثلة أصناف التَّعزية ، وجمع تحته (تعزية عن والد – عن أخ – عن ابن – عن أم – عن ابنة أو أخت – عن زوجة – عن غلام أو مال) بدأ حديثه بالأصول وانتهى بالفروع ، وقدم الذكور، من ذلك قوله في تعزية عن والد: " الأيَّام كما علم مولاي – حرس الله حَوْبَاءه من الغِيَر، وصان صفاءه عن الكَدر– رواحلُ سفر ، تسير بالنُّفوس إلى المستقر سيرًا سريع الذهاب ، والجسوم كالهوادج والقِباب، والكلُّ كائن زائل ، ومقيم راحل ، وعلى الأيَّام في هذا التَّصرف نوع من التَّحَيُّف مُفنٍ لمادتها ، ومستأصل لشأفتها ، فهي أسباب ذهاب وإذهاب ، وعِلل قَلْبٍ وانقلاب ، ومن تأمَّل تغيُّرها في ذاتها ، وتغييرها لهِباتها ، لم تعظُم عليه الكُرُبات ، ولا نَهْنَهَتْه النَّكبات "(٢)

وأخيرًا جاء الباب الثامن في مفردات نوادر المخاطبات ، يحوي سبعة أغراض: (في البشارة بوفاء النيل – الاعتذار من حضور وداع – في عتاب عن تأخر الكتب – في شكر والد واستقضاء جوابه – في تهنئة بعذار– في تسلية عن شيب – في تسلية مهزوم) وعنوان الباب يشير إلى أنه سيذكر أمثلة مفردة في نوادر المخاطبات ، وقد التزم بذلك ، وبدأ الباب بمثال في (البشارة بوفاء النيل) لكنه عنون له في داخل الكتاب بمثال أول مخالفًا صنيعه في الفهرس، فأوهم أنه سيذكر خمسة أمثلة ، ولعله خطأ من الناسخ ، أو أنه يعني مثالًا في أول نوادر المخاطبات، ومن مثال البشارة بوفاء النيل اخترت قوله: " حضرة الخلافة الثابتة الأركان ، المُشيَّدة البُنيان ، بسطَ الله

(١) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٢٢.

(٢) السابق لوحة رقم ١٦٤.

نُورها ، وأدام سُرورها ، من كمال الحُسن والجمال ، وتتابع السَّعد والإقبال ، في حالة ببهائها حَالِيَة ، وجلالة بسنائها متناهية ، فكلُّ ما يَرِدُ من الآلاء ، ويتردَّد من النَّعْماء ، فقد كانتْ دلائل الأوائل بها شاهدة ، ومخايل الفضائل إليها قائدة ، وكتاب عبدها وخادمها ، وغريق مِنَنِها ومكارمها ، يفد من موضع كذا من أعماله بالصَّعيد يوم كذا ، وقد انتهى النِّيل المبارك بها إلى ما عُهد من النِّهاية ، وأربى ببركات أمير المؤمنين على تلك الغاية ، وشمائله ضامنة للنَّماء، موجبة للسَّرَّاء " (١).   و بعدُ...؛

فإن موضوعات كتاب الحُمَيدِيّ رسمت صورة واضحة بهيَّة للحياة الاجتماعية للعرب عامة ، وللمجتمع المصري خاصة ؛ فقد جاءت النماذج مستوعبة لشتى المنَّاسبات ؛ الأعياد الإسلامية كالفطر والأضحى...، والأعياد المُجتمعية كالنَّيروز والمِهرجان ووفاء النيل... ، والمناسبات الاجتماعية من تهنئة وتعزية ... ، وجاء أيضًا مستوعبًا للعلاقات الشخصية بين لأفراد وما يتخللها من اعتذار وشكوى و وصف الشوق والفراق...، وما يتراسلون به في شتى الأوقات ، وما يتبادلونه من أدعية عند اللقاءات... إلخ .

ثانياً : موضوعات الكتاب نظرة نقدية :

بدأ الحُمَيدِيُّ كتابه – كما أشرنا سابقًا– بعرض نماذج من إنشائه خالية من التَّحليل أو التَّنظير ، فقد اكتفى بما ذكره في مُقدمة كتابه ، وعمد هنا إلى عرض تلك النماذج لتحقيق هدفه الذي أعلن عنه بوضوح في عنوان كتابه ، وفصَّل القول فيه في مقدمته ؛ وهو أن تكون هذه النماذج وسيلة لتمرُّس الرَّاغبين ومِرانهم في تعلم صناعة الكتابة وإجادة فن التَّرسيل .

ولعل ما دفعه إلى اختيار ذلك المنهج ، ما سبقه من مؤلفات تخصصت في الجانب التنظيري لأصول الكتابة وأدواتها ؛ ومنها :(أدب الكاتب) لابن قتيبة ت٢٧٦هـ

(١) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٨٥.

، و (أدب الكتاب) للصولي ت ٣٣٥ هـ ، و(كتاب الكتاب) لابن درستويه ت ٣٤٧ هـ ، وهذه الثلاثة عُنيت بالثقافة اللغوية للكاتب ، ومنها : (الألفاظ الكتابية) لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني ت ٣٢٠ هـ ، و(كتاب الألفاظ) لابن المرزبان ت ٣٣٠ هـ ، و(جواهر الألفاظ) لقدامة بن جعفر ت ٣٣٧ هـ ، وهذه الثلاثة عُنيت بفنيات اللغة ، ومنها : رسالة عبد الحميد بن يحيى ت ١٣٢ هـ ، والرسالة العذراء المنسوبة لابن المدبر ت٢٧٩ هـ ، وهاتان الرسالتان عُنيتا بأصول الكتابة والأدوات التي تحتاج إليها .

وإذا كانت هذه المؤلفات السابقة قد عُني كل منها بجانب من الجوانب النَّظرية لفن الكتابة دون العناية بالكتابة بمفهومها العام الذي يتجلى في الرسائل ، فإن هناك مؤلفين آخرين سابقين على الحُمَيدِيّ جمعا بين الجانب التَّنظيري والجانب التطبيقي أولهما :(عُمدة الكُتَّاب) لأبي جعفر النَّحاس المتوفي سنة ٣٣٨هـ ، وبناه على إحدى عشرة مرتبة تدور حول التنظير لفن الكتابة والحديث عن البلاغة (١)، والحقيقة أنَّ أبا جعفر النَّحاس قصد جانبًا ، وقصد الحُمَيدِي جانبًا آخر، مما يجعلهما متوازيين ، لا قائدًا وتابعًا ، أو سابقًا ولاحقًا. والثاني: هو كتاب:(مواد البيان) لعلي بن خلف الكاتب ، والذي لم يُعرف تاريخ ميلاده ولا وفاته على التحديد ، ورجَّح الباحثون أنه ولد في بدايات القرن الخامس ، غير أن كتابه (مواد البيان) اشتمل على نص يؤكد أنه تم تأليفه في سنة ٤٣٧ هـ ، ومن هنا يمكن القول بمعاصرة الحُمَيدِيّ لصاحب هذا الكتاب ، ولا شك في أن هذا الكتاب سابق على كتاب الحُمَيدِيّ ؛ حيث كان سن الحُمَيدِيّ حينذاك سبع عشرة سنة تقريبًا، ولم يكن قد أتى إلى المشرق بعد .

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى تناوله التَّفصيلي لجل ما ذكره الحُمَيدِيّ في مقدمته؛ فقد فصل القول في العديد من هذه المصطلحات التي أوجز الحُمَيدِيّ الحديث عنها

(١) انظر : عُمدة الكُتَّاب لأبي جعفر النحاس – نشرة مصورة بعناية فؤاد سزكين – ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م – معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية برنكفورت .

في مقدمته مثل :(البلاغة و الكتابة) ، كما أنه فصل الحديث عن آلات الامتثال التي أشار إليها الحُمَيدِيّ في مقدمته ، فتحدَّث بالتَّفصيل عن أهمية معرفة النَّحو والصَّرف ، وخصص بابًا في الحديث عن عيوب الألفاظ وعيوب المعاني ، وبابًا في الحديث عن ألوان الاحتذاء ومذاهب السابقين فيه .كما جاء الباب الخامس في كتاب (مواد البيان) متضمنًا الحديث عن أوضاع الخط وقوانينه . وبهذا يمكن القول بأن كتاب علي بن خلف (مواد البيان) تناول جُل ما اشتملت عليه مقدمة الحُمَيدِيّ بالتفصيل والتحليل .

وأما عن موضوعات كتاب الحُمَيدِيّ ، فلم تخرج في معظمها عما تناوله على بن خلف مما لم يرد في كتابه (مواد البيان) – لأن الكتاب دائر على التنظير للكتابة وأقسامها ومراتبها من توقيع وخراج وضياع و رسائل وخصوصًا السلطانية ، والحديث عن البلاغة وأقسامها وفنونها التي هي عُدَّة الكاتب – وإنما مما أكمله محقق الكتاب مما أورده القلقشندي في (صبح الأعشى) ونسبه لعلي بن خلف في (مواد البيان) (١).

ومن هنا نقول إن ابن خلف سابق على الحُمَيدِيّ في عرض نماذج تطبيقية للرَّسائل الإخوانيَّة .

وهنا سؤال يطرح نفسه ، هل تأثر الحُمَيدِيّ بعليٍّ بن خلف ؟

هناك عدة شواهد أو أدلة تُقوي الظن بأن الحُمَيدِيّ تأثر بعلي بن خلف وهي :

١- سَبْق على بن خلف للحُمَيدِيّ في الزمن والتأليف.

٢- عاش ابن خلف في مصر، وجاء الحُمَيدِيّ إلى مصر، ومن المستبعد أن يأتي الحُمَيدِيّ إلى مصر ولا يسمع بابن خلف .

(١) انظر : مواد البيان من ص ٥٧١-٦٧٠ .

٣- المقدمة النَّقدية عن الكِتابة ؛ أوجزها الحُمَيدِيّ ، وفصَّلها ابن خلف .

٤- كلاهما أورد تعريف الرُّماني للبلاغة (إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ) بيد أن الحُمَيدِيّ استبدل النفس بالقلب .

٥- كلاهما استخدم لفظ (الحدّ) في تعريفاته ؛ استخدمه ابن خلف مرة واحدة في تعريف الكتابة ، واستخدمه الحُمَيدِيّ في كثير من التعريفات.

٦- موضوعات رسائل الحُمَيدِيّ تتشابه مع ما نسبه القلقشندي لابن خلف .

لكن مما يُوهن الظن بتأثر الحُمَيدِيّ بابن خلف :

١- أن خطوات عرض الحُمَيدِيّ مختلفة ، ولا نلمس فيها ألفاظ ابن خلف ولا أثر معانيه .

٢- أن التشابه جاء في الأمور المشتركة التي لا سبق فيها .

٣- أن بعض التشابه يمكن عزوه لغير ابن خلف كلفظ (الحدّ) ، فالأقرب أنه تأثر فيه بابن حزم ، فهو من مفردات عنوان كتاب ابن حزم ، وقد نقل منه الحُمَيدِيّ.

٤- انفرد الحُمَيدِيّ ببعض الموضوعات الجديدة ومن ذلك :الباب الخامس الذي صنفه فيما يقال عند إرادة الأفعال ، وفصوله ستة ، ومنها: ما يقال فيمن أراد سفر بر لحج ، وما يقال فين أراد سفرًا عامًا ، إلخ .(١) ومن ذلك : الباب الرابع الذي جعله فيما يجري مجرى تسلية المحزون .

٥- تمحورت رؤية الحُمَيدِيّ حول موضوعه بدقة متناهية ، بينما تشعَّبت رؤية ابن خلف بين فنون الرسائل والبلاغة والنقد.

الوحدة الموضوعية للكتاب :

(١) انظر : تسهيل السبيل لوحة رقم ١٣ .

بدا التطور على العقلية العربيَّة في فن التأليف من خلال الحُمَيدِيّ وكتابه ؛ فقد اتضحت الوحدة الموضوعية في ذهنه على نحو جميل ، فدار الكتاب حول موضوع واحد ، وهو الرسائل الإخوانية تنظيرًا وتمثيلًا ، وقد حافظ الحُمَيدِيّ على تلك الوحدة من أول الكتاب إلى آخره ، فتجنب الاستطراد ، ولم يَحْذُ حذو الجاحظ في البيان والتبيين والحيوان ، ولا سلك مسلك ابن خلكان في وفيات الأعيان .

وكان منطقيًا في ترتيب أبواب كتابه التي جاءت في ثمانية أبواب على النحو التالي :

١-مثالات أدعية الأوقات ٢- أمثلة اللقاء ٣- شذور التهنئة بأحوال السرور ٤- التسلية ٥- إرادة الأفعال ٦- في أسباب الوداد ٧- في أصناف التعزية ٨- في نوادر المخاطبات . وهي رؤية جيدة ، وأحسن منها لو جعل الباب السابع بعد الباب الخامس أو قبله (التعزية بعد التسلية أو قبلها)؛ لأنه ذكر أن التسلية في منزلة وسط بين التهنئة والتعزية ، ومن ثم أتبع التهنئة بالتسلية ، وكان عليه أن يتبع التسلية بالتعزية ؛ لأن التسلية والتعزية كلتاهما مبنية على التهنئة.

الوحدة الفنية في بناء الأبواب :

جرى المؤلفون على تصدير كتبهم بخطة عامة مقسَّمة لأبواب أو فصول ، والتزموا فيما يوردونه من عناصر تحت الأبواب أو الفصول أن يجمعها الترابط والتلاحم ، وقد قسم الحُمَيدِيّ كتابه إلى أبواب تحتها فصول متلاحمة ، وسأكتفي بالتمثيل على الباب الأول (مثالات أدعية الأوقات) ، وجمع تحته عِدَّة فصول على النحو التالي :(ما يقال في الصباح – في أقات النهار – في المساء – في أوقات الليل – وعند النوم – وعند القيام من النوم – وعند إهلال كل هلال – في إهلال شهر الصيام – في أوقات الصيام – وعند إهلال هلال الفطر – ويوم الأضحى – في المشاهد المقصودات في مثل هذه الأوقات – وفي دخول العام – وفي النيروز – وفي المِهرجان) .هذا الترابط الموضوعي بين فصول الباب (المُناسبات الزمانية)، وهذا التدرج المنطقي في الانتقال

بين فصول الباب ؛ فرتب الموضوعات ترتيبًا زمنيًا في الأوقات ، وفي الأعياد ، وهو يعكس رؤية بصيرة ، وعقلية مستنيرة ، وإحاطة بالموضوع من شتى جوانبه .

بيد أني أود أن أشير إلى اختلاف يسير بين العناوين في الفهرس وبين العناوين داخل الكتاب ، من ذلك : جاء العنوان في الفهرس(ما يقال عند القيام من النوم)، وجاء في المتن (ما يقال في وقت الاستيقاظ من النوم) ، وفي الفهرس (من أنكح ابنته) ، وفي المتن (من أنكح كريمته).

وهذا الخلل وإن كان يسيرًا ، فمن الواجب أن يكون مذكورًا ؛ إذ الحق توحيد العنوان حين يذكر في كل مكان ، في الفهرس أو المتن .

المبحث الثالث
تسهيل السَّبيل إلى تَعَلُّم التَّرسيل
رُؤية فنيَّة

(أ) بين المُقدمة العامَّة ومُقدمات الأبواب والأغراض :

اشتمل كتاب الحُمَيدِيّ على لونين من التقديم ، أولهما : المُقدمة العامَّة للكتاب، وقد سار فيها على النهج المتعارف عليه في المقدمات ، تحدث فيها عن الهدف من تأليف الكتاب ، وساق رؤية نقدية عن البلاغة والفصاحة والبيان وكتابة الرسائل ، ثم تحدث عن منهجه في تأليف نماذجه ، ووضع فهرسًا رتَّب عليه أبواب الكتاب وموضوعاته.

وأمَّا اللون الثَّاني من التَّقديم ، فهو التَّقديم الخاص بالأبواب والأغراض ، ولا نجد هذا التَّقديم بصورة منتظمة في كل أبواب الكتاب وأغراضه ؛ فقد اقتصر منه الحُمَيدِيّ على بابين وغرض واحد ؛ أمَّا البابان فهما : الباب الثاني والرابع ، وأما الغرض فهو: (فيما يقال تسلية لمن نكح أبوه أو أمه) من الباب الرابع.

وتقديمه للباب الثاني ليبين علة التصنيف فيه رغم تشابهه الواضح مع الباب الأول ؛ إذ المطالع له يظن التَّكرار ، حيث جاء الباب الأول في أدعية الأوقات ، وجاء الثاني في أمثلة اللقاء وتصنيف أهله في الدعاء ، فكلاهما في الدعاء ، فجاءت المُقدمة لتدفع هذا الظن وتزيله ، وتبين الفارق بينه وبين الباب الأول ، كذلك فقد ربط الحُمَيدِيّ أمثلة اللقاء بأمثلة الأوقات ، ليزيد المُستفيد معنىً ، ويقدم في تكثير المثالات يدًا حُسنى ؛ وترتيبه للبابين الأول والثاني – على ما قال – يقف وراءه التشابه في المضمون ، كما ذكر أنه بدأ الغرض بذكر أوصاف اللقاء عمومًا ؛ لإمكان الاستفادة منها في أكثر من غرض.

وأما التَّقديم للباب الرابع فقد عرَّف فيه الحُمَيدِيّ بعنوان الباب وهو (تسلية المحزون) فجعله غرضًا مستقلًا عن التعزية وليس داخلًا فيها كما يظن البعض ، ووضح مكانه من التَّهنئة والتَّعزية، وشرح المصطلحات الثلاثة ، وجعل التهنئة في مسرة الانتقال من حال إلى حال، واستفادة ذاتٍ أو مال ، ثم يبني على هذين اللونين من التهنئةِ التَّسليةَ والتعزيةَ؛ أما التَّسلية فتكون في تغير المنازل والأحوال، وأما التعزية فتكون عند فقد ذات أو مال، ثمَّ بَيَّن الحُمَيدِيّ أن التسلية بهذه التفرقة صارت وسيطة بين التهنئة والتعزية. ومقدمته مع الغرض كانت بصدد اللبس الحادث من الكتابة لمن تزوج أبوه أو تزوجت أمه، فاغتم لذلك، هل هو من التسلية أو من التعزية ، واختلاف الناس في ذلك؟. ومن ثَمَّ نقول إن الحُمَيدِيّ لجأ إلى المقدمات الخاصة – أحيانًا – ليزيل اللبس ، ويكشف عن مظنَّة التكرار .

(ب) بنية الرِّسالة :

لم يتحدث الحُمَيدِيّ في مُقدمة كتابه عن الأسس الفنية المُثلى في بناء الرسالة عنده أو عند السابقين ، مما يجعلنا نتساءل : هل كان للحُمَيدِيّ منهج خاص ابتدعه في كتابة الرِّسالة الإخوانيَّة، أو أنَّه سار على نهج السابقين واحتذى خُطاهم في إنشاء نماذجه ؟.

إن كنا عدمنا الإجابة على هذا السؤال في المُقدمة النَّظرية ، فتبقى الأمثلة شاهدة على منهجه ، وكاشفة عن أسس بنائه ، ولكن لابد – للوقوف على حقيقة منهجه – من دراسة مُستقصية متأنية لمعالم البناء الفني في نماذج الحُمَيدِيّ ، أولًا : لنرسم صورة واضحة لمعالم بناء الرسالة عنده ، وثانيًا : لنرتب على هذه المعالم حكمًا نقديًا، وإلا أصبحت الإجابة عن هذه الأسئلة ابتداءً ضربًا من العبث . فإلى بناء الرسالة عند الحُمَيدِيّ:

أولاً : ابتداء الرِّسالة :

١-كثيرًا ما تبدأ النماذج التي قدمها الحُمَيدِيّ بالدعاء ، وابتداء الرسائل بالدعاء عنده له عدة صور؛ فقد تبدأ بالدعاء مباشرة مثل قوله في التهنئة بتطهير ولد :" جعل الله مجد هذا المشهد كفيلاً بسرور الأمد ، وجعل تطهيره على كل مرغوب ظهيره ، ولا أعدمه سعدًا كما لم يعدمك رشدًا "(١)، وقد تتوالى الجمل الدعائية في صدر الرسالة كهذا المثال ، وقد يكتفي بجملة واحدة ، وهناك رسائل تكاد تتصرف من أولها إلى آخرها إلى الدعاء(٢) .

٢-والجملة الدعائية عنده تأخذ عدَّة صور أبرزها: " أطال الله بقاءك " أو "أطال الله بقاء سيدي " أو " أطال الله عمر مولاي " . وهذه العبارة الدعائية هي الأكثر شيوعًا وتداولاً لدى الحُمَيدِيّ ولدى سابقيه ، والأمر في ذلك راجع إلى تعبيرها عن أهم ما يُعنى به الإنسان ويشغل تفكيره ، ألا وهو استمرار الحياة ، وطلب الخلود ، أليست هذه قصة أبينا آدم – عليه السلام – مع الشيطان والشجرة ؟. والدعاء بتلك الجمل ونحوها يجري على ما اتَّبعه العرب من العدول عن الدعاء بـ (حفظه الله) و(أكرمه الله) إلى هذا اللون لقصد التعظيم والإجلال ، وإدخال السرور على المخاطب بتحقيق ما يتنافس فيه أهل الدنيا ، متَّبعين في ذلك عادات مُلوك الفرس(٣)

(١) تسهيل السبيل لوحة رقم ٦٤.

(٢) هناك مجموعة من الرسائل لا تعدو أن تكون دعاء للمرسل إليه ، ورجاء في توفيق الله له، وقد قصد الكاتب هذا ، ونص عليه ، ومنه : (الباب الأول من المماثلات في أدعية الأوقات)،(الباب الثاني في أمثلة اللقاء وتصنيف أهله في الدعاء) ، (صفة الدعاء للعلماء) ، (الدعاء للتجار) ، (الدعاء للصناع) ، (الدعاء للآكل) ، (الدعاء عند إرادة الرحيل للغزو)... إلخ ، نهيك عن أغراض أخرى هي في الدعاء وإن لم تحمل عنوانًا في ذلك ، ومنها : (فيمن اشترى جارية) ، (فيمن باع غلامًا) ... إلخ ، وطبيعة مثل هذه دعائية وإن لم تبدأ بالدعاء صراحة .

(٣) انظر : مواد البيان ص٥٠٠ .

٣-ومن عبارات الدعاء عنده:" أدام الله عزَّك" أو" أدام الله عزَّ مولاي "أو " أدام الله عزَّه" .

ومنها :الدعاء بالتأييد والسعادة والسرور كقوله : "أيد الله مولاي " ، "أيده الله "وقولهم : "أيد الله سيدي" ، "أدام الله تأييده" ، " أدام الله سرور مولاي " ، "أدام الله سرورك" ، "أتم الله سعده" ، "أدام الله سعد مولاي " ، وهذا النوع من الجمل ، وخاصة ما يحمل ألفاظًا بهيجة (السعادة والسرور) تأتي –عنده– في مناسبات سارة وسعيدة فحسب ، بخلاف الأنواع الأخرى التي تصلح لكل الأغراض .

٤-و الجملة الدعائية – غالبًا – شديدة الارتباط بمضمون الرسالة ، فربما اشتقها من غرض الرسالة ،كما في قوله في تسلية مريض :"إني . أعاد الله صحة مولاي . لفرط اتصال نفسي بنفسه واتحاد أنسي بأنسه ، أكاد أجد من الألم كالذي يجده "([١]) ، فدعا له بعودة الصحة ، ومضمون الرسالة تعزية عن فقدان الصحة . ومثل قول الحُمَيدِيّ فيما يقال فيمن انصرف من طريق حج أو نحوه لعذر قبل أن يصل : " إن منع – أتم الله آمال مولاي – من نفاذ العزيمة مانع "([٢])

٥- وقد يلجأ إلى الدعاء من خلال جملة اعتراضية في أول عبارة يبدأ بها الرسالة، وهذا اللون شائع في رسائل الحُمَيدِيّ ورسائل سابقيه ، ومثاله لدى الحُمَيدِيّ قوله في التهنئة بتطهير ولد : " لئن كان ابنُك – أتم الله سعده بك – غمرًا في مشهد الأعذار ، لقد تم في مطالع الافتخار..."([٣]) . وقد تكون الجملة الدعائية واحدة كما في المثال ، وقد تكون جملتين ؛ والجملتان قد يكون بينهما فاصل ، وقد لا يكون ؛ أما الجملتان بلا فاصل فمثل قول الحُمَيدِيّ في التهنئة بفتح :" لله – أطال الله بقاء مولاي – وأدام

([١]) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٠٦.

([٢]) تسهيل السبيل لوحة ١٠٩.

([٣]) السابق لوحة رقم ٦٤، وانظر لوحة رقم ٨٣ .

عزَّه – هذا الصنيع الذي أشرق نوره " (1)، وأما الجملتان بفاصل فمثل قول الحُمَيدِيّ في التهنئة بولاية عمومًا : " ليهنه – أيده الله – ما انتهى إليه ، وأوقفه فضله عليه ، ولا غرو فيه – أدام الله عزَّه – حل تاج السعادة فوق مفرق السيادة".(2).

و السؤال المهم ، لماذا يتخلى الحُمَيدِيّ عن الدعاء المباشر ويلجأ إلى الجمل المعترضة ؟ هل هذا من باب التنويع والتغيير، أو أنه لدواع فنيَّة ؟

وأقول :إذا بدأ الحُمَيدِيّ الرسالة بخطاب المُرسَل إليه فإنه غالبًا ما يلجأ إلى الدعاء مباشرة ، وهو بذاك يوقره ويعظمه ، أما إذا بدأ بالحديث عن نفسه (المرسِل) فلا يتمكَّن أن يبدأ بالدعاء مباشرة ، ومن ثمَّ يلجأ للدعاء بالجملة الاعتراضية قريبًا من الجملة المِفتاحية، ومثال ذلك قوله في العتاب " قد كنتُ – أدام الله سعد مولاي – أَسْكُنُ إليه غاية السُّكون، وأرى أنَّ صِحَّة أملي فيه كالمضمون " (3)

ويرجع حِرصه في صدر الرسالة على الدعاء مباشرة أو بالجمل المعترضة ؛ لأنه – في ذلك – جارٍ على تقاليد الرسائل ، وموقر للمرسَل إليه ، وفوق ذلك لأنَّ للدعاء قوة سحرية ، تحمِل التقدير والمحبة من المُرسِل ، وبذلك تنفذ الرسالة إلى قلب المرسَل إليه ، وتهيئه للتفاعل معها .

٥–وقليلًا ما تبدأ الرسالة بصور غير الدعاء ، كأسلوب الاستفهام (4) والشرط (5) و الخبر (6) وهي في كلٍ تشكل مدخلاً للدعاء ووسيلة من وسائله ، ومن هنا لا يمكن

(1) السابق لوحة رقم ٤٤، وقد فصَّل ابن خلف القول في أحوال الجملة الدعائية في صدر الرسالة ، ومتى تكون واحدة ، ومتى تكون غير ذلك .

(2) السابق لوحة رقم ٤٠ .

(3) السابق لوحة رقم ١٥٥.

(4) تسهيل السبيل رقم ١٦.

(5) السابق لوحة رقم ١٩.

(6) السابق لوحة رقم ٢٦.

أن نعدها خروجًا حقيقيًا على منهج البدء بالدعاء. وقد تبدأ الرسالة بالحمد كما في تهنئة من استقال من نكبة ([1]) ، و تهنئة ناقه من علة([2])، وهي بداية تقترب في تأثيرها من الدعاء ، فهي تكشف عن التَّوحد في المشاعر بين المرسِل والمرسَل إليه . تلك هي الصور المُثلى لدى الحميدي ، وما سواها قليل لا يمثل ظاهرة ، ومن ثم أعرضنا عن الحديث عنه .

ثانيًا : مضمون الرسالة:

جاء المضمون من الناحية الفكرية إنسانيًا خالصًا ، يدور – غالبًا – في فلك المعاني الإسلامية الرَّحبة المُتكئة على الحوادث التاريخية لسَلف الأمَّة ، والمنحوتة من الآيات القرآنية ، والمُستقاه من الأحاديث النبوية ، ويمكن أن نلاحظ ذلك من عدة زوايا :

-الفكرة الرئيسة لكثير من الرسائل قائمة على مناسبات إسلامية أقامها الدين كعيد الفطر والأضحى، أو مُناسبات اجتماعية يحث عليها الإسلام كالتهنئة والتعزية والتسلية .

-جاءت الرسائل معبرة عن الإنسان مرتبطًا بالحياة والكون في تناغم رائع ،على طريقة الأدب الإسلامي ، فانتشرت الطبيعة الغناء ممتزجة بالإنسان ، فرأينا عبارات مثل (الشهر السعيد) ، و(أزهر الزمان) و(فبك فاح نسيمه) ...إلخ.

-لم تخل رسالة من الرسائل من جملة دعائية تربط المرسَل إليه بأسباب القوة الحقيقية وهو الله عزَّ وجلَّ ، أو عبارات تفوح منها المعاني الإسلامية مثل (عرّف الله مولاي بركة هذا الهلال) ، و(عرفه الله بركة إقباله) ، (وأثبت لك برؤيته دخول جنته) ...إلخ.

([1]) السابق لوحة رقم ٤٩.

([2]) السابق لوحة رقم ٥١.

وحدة المضمون :

تحققت الوحدة الموضوعية ، أو وحدة المضمون – قصرت الرسالة أو طالت – على نحو جيد ، فدارت الرسالة في رحاب الموضوع الواحد ، وكثف الحُمَيدِيّ الفكرة فيها، وسلط الضوء عليها بكل سبيل ، مما جعل وحدة المضمون تتكامل على نحو عضوي فريد ، وهو ما يشير إلى تباين منظور الأدباء العرب في النثر عن الشِّعر ، وأنهم كانوا على وعي تام بذلك ، ومن ذلك مثاله الثاني في تهنئة بفتح : " أنار هذا الفتح العظيم والمشهد الكريم حتى كاد أن يُعرف قبل أن يُوصف ، وأن تتيقَّنه الضمائر قبل أن تأتي به البشائر ، وأن يُقرأ كتابه قبل أن يُفَضَّ خِتامُهُ ، وأن يتَّضح نُوره قبل أن تُلمح سُطوره ، وذلك ببركات مولانا، أطال الله في سماوات العُلا أنواره ، ورفع في طُرقات السَّعادات مناره ، وهنَّأه هذه المسرَّات التي توالتْ عليه والمُبَشِّرَاتِ التي انثالتْ على يديه ، وَلْيَهْنِ أنصار الدِّين وجملة المؤمنين ما وهب الله به من عِزِّ الإسلام ، وتوالي الإنعام ، ونصر الهُدى ، وكَبْتِ العدا ، وهو تعالى الكفيل بقَبُول الدُّعاء، والمُعين في حقِّه على الأداء " (1) . فدارت الرسالة حول موضوع واحد لم تتجاوزه ، فوصف الفتح وعظمته ، ثم تطرق إلى الفاتح وعزته ، وآثار بركته في تحقيق النصر ، ثم تناول أثر الفتح على سائر المسلمين ، وهي كلها محاور للفكرة الأم ؛ وهي التهنئة بالفتح.

ثالثاً : الخاتمة :

–وكما بدأت الرسالة بالدعاء خُتمت بالدعاء ، هذا هو التقليد الشائع والأعم . والدعاء في معظم الرسائل لا يتبعه تقليد آخر ، وربما أُتبع بالسلام ، ومن ذلك قول الحُمَيدِيّ في خاتمة رسالة لمن أنكح ولده: " وتصل فيه إلى مناك ، والسلام".(2)

(1) تسهيل السبيل لوحة رقم ٤٥.

(2) تسهيل السبيل لوحة رقم ٦٩.

وفي بعض الرسائل يتبع الدعاء بقوله (إن شاء الله) وهذا المسلك من آثار شخصية الحُمَيدِي الفقيه المُحدِّث ، ومن أمثلة ذلك قول الحُمَيدِيّ في التهنئة بعودة الولاية بعد صرف : " وهو يسأل الله تعالى بأصدق النية ، وأتحف الأدعية ، أن يُديم بهاء الرئاسة بإشراقكم ، ويطلع شمس السعود من آفاقكم ، وهو ولي القبول بحوله ، إن شاء الله ".(١)

-والدعاء في خاتمة الرسالة – غالبًا – ينبع من مضمونها ، فهو يتناسب مع الرسالة ويرتبط بها ، ومنه قول الحُمَيدِيّ في تهنئة من قدم أبوه :" لا قطع الله بعدها أمد الوصل ، ولا فرَّق جمع هذا الشمل ".(٢)

-وربما خلت الخاتمة من الدعاء ، وهذا لم يحدث إلا في موضع واحد ، وذلك في قول الحُمَيدِيّ في العتاب عن تأخر جواب:" وهأنذا منتظر لجواب هذا العتاب، ولا أدري علها الأسباب، وإلا جعلناه آخر خطاب، حتى نجتمع، إن شاء الله".(٣)

وقد حال بينه وبين الدعاء في هذه الرسالة تكدُّر النَّفس ، وزوال الأُنس، يقول : "والآن قد بقيت متحيرًا ؛ تارة أشك ، وتارة أحقق ، ومرة أخص الملام ، ومرة أطلق ، وقد آن بيان الشكوك ،وخلاص المأخوذ به من المتروك، فإن كان ثَمَّ ذنب اعترفت واستغفرت ، وإن صح لي حق تركت واغتفرت ..."(٤)، أرأيت يا صاح : منعه من التَّعقيب بالسَّلام حُلول الآلام ، واستعار نار الملام .

(ج) رسائل الحُمَيدِيّ بين الإيجاز والإطناب من منظور فني :

(١) السابق لوحة رقم ٤٢،وانظر لوحة : ٤٨ ،٧٣ ، ٩٦.

(٢) السابق لوحة رقم ٧٦.، وانظر لوحة ٤١ ، ٤٧ .

(٣) السابق لوحة رقم ١٨٨.

(٤)السابق اللوحة نفسها .

يلاحظ على مضمون الرسالة عند الحُمَيدِيّ أنه يتضاءل أحيانًا حتى يناصف الدعاءُ الرسالةَ ، ويتوسط أحيانا كثيرة ؛ فيكون متوسط حجم الرسالة سبعة أسطر ، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً ، وهذان الأمران (التضاؤل والتوسط) من خصائص الرسالة لدى الحُمَيدِيّ ، وهو ما يُرَشح الحكم باتصاف الرسالة عند الحميدي بالإيجاز غالبًا، ويبقى البحث عن الدواعي التي تقف وراء الإيجاز في تلك الرسائل هدفًا منشودًا .

-ولعل من أسباب الإيجاز في نماذج الحُمَيدِيّ أنه أخذ على نفسه أن ينشئ في كل باب فصولاً عديدة ، وفي كل فصل خمسة أمثلة ، فألزم نفسه بحمل ثقيل ، وهو في تلك الأمثلة يتكئ على نفسه ، ويمتاح من معينه ، وليس جامعًا لها . ولم ينحرف في كتابه عما خطه لنفسه من نظام ، فجميع فصول الكتاب على كثرتها ، أمثلتها خمسة ، ولم يسقط هذا النظام إلا في آخر باب ؛ حيث بناه الحُمَيدِيّ على مثال واحد لكل غرض .

- ومن دواعي الإيجاز طبيعة كثير من الموضوعات كالأدعية واللقاء والتهنئة بالأعياد ، فليس هناك أسباب لاشتجار المعاني في النفس، ولا تفرعها في الحسّ؛ وبذلك سُدَّ عليه أكبر طرق الإطناب، وحيل بينه وبين الإسهاب؛ فالموضوع تجسده وتعبر عنه فكرة واحدة، ومن ثَمَّ كان الإيجاز .
- ورسائله بذلك جاءت متساوقة مع الأصول العامة لفن الرسائل في القديم ، فقد بدأت الرسالة في عصر صدر الإسلام وما قبله متجهة نحو الإيجاز ، ثم تحول هذا الفن إلى الإطناب في أواخر العصر الأموي على يد عبد الحميد بن يحيى الكاتب .
- بيد أن الحُمَيدِيّ لم يلتزم بالإيجاز التزامًا صارمًا ففي أحيانٍ تَفرض طبيعة الموضوع عليه أن يلتزم بالإطناب ، وإن كانت الرسالة مع ذلك لم تبلغ في أطول حد لها ما بلغته الرسالة الإخوانية لدى السابقين مثل ابن خلف . والملاحظ على هذه الرسائل الطويلة لدى الحُمَيدِيّ دوران معظم موضوعاتها حول ما يصيب الإنسان بالآلام

والأحزان ، وتنحصر معظم هذه الرسائل الطويلة في الباب الرابع وعنوانه :(فيما بجري مجرى تسلية المحزون) ، وفي الباب السادس وعنوانه:(في أسباب الوداد ونتائج حسن الاعتقاد)، وفي الباب السابع وعنوانه :(في أصناف التعزية) ، عدا بعض الرسائل القليلة المتناثرة في الأبواب الأخرى ، ولعله من الطبيعي أن تقوم الرسالة على الإطناب في مثل هذه الموضوعات ، إذ يتطلب الهدف منها أن تمتد حتى تفرغ المعاني من النفس؛ فتنتزع الآلام ، وتستلّ الأحزان .

(د) رسائل الحُمَيدِيّ بين الوضوح والغرابة :

من خصائص النثر الجيد الوضوح ، فعليه المعول في وصول الكلام إلى المُتلقي، في يسر وسلاسة ، يقول أبو إسحاق الصَّابيّ (ت ٣٨٤هـ) : "إن طريق الإحسان في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه، لأن التَّرسل هو ما وضح معناه، وأعطاك سماعه في أول وهلة ما تضمنته ألفاظه. وأفخر الشِّعر ما غمض، فلم يعطك غرضه إلا بعد مُماطلة منه"[١].

وعلى الوضوح دارت علوم البلاغة ، فالبلاغة بنُيت على وصول المعنى، والفصاحة وهي من صفات الألفاظ الأدبية ، وأحد عناصر البلاغة، تعني الإبانة ، يقال : أفصح الأعجمي : إذا أبان بعد أنْ لم يكنْ يُفصِح ويُبين ، والبيان وهو أحد علوم البلاغة الثلاثة ، يعني : الظهور والوضوح .

والوضوح الذي نتحدث عنه ، والذي يرمي إليه الناثر ، ويسعى من خلاله إلى التأثير في المتلقي لا يعني السطحيّة ، وأداء المعنى بشكل مبتذل ، أو تقريره في الذهن تقريرًا ساذجًا كما تُقرّر الأقوال العاديّة في لغة الخطاب اليومي ، ولكنّه يعني كما ذكرنا في البداية : وصول الكلام إلى المتلقي ، في يسر وسلاسة ، حتى يؤثر فيه.

(١) المثل السائر لابن الأثير – ٦/٤ – تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة – ط – الرسالة– بيروت – ١٩٦٢م .

وعندما نطالع رسائل الحُمَيدِيّ نجدها تتصف بالوضوح والسهولة ، كما أنها ترتفع عن السطحية والابتذال ، وحسبك شاهدًا على ذلك ما نثرناه من النماذج في سائر البحث، وقد نصَّ الحُمَيدِيّ في موضعين من مقدمة كتابه على أن الوضوح والسهولة هدف من أهدافه وهو ينشئ كتابه ، وذلك حتى يستوي في الانتفاع به الخاصة والعامة ، لسرعة الرسائل الواضحة إلى الفهم ، يقول الحُمَيدِيّ : " وجعلناه مفردًا من إنشائنا خاصة بألفاظ سهلة ومعان قريبة، يستوي في الانتفاع بها الخاصَّة والعامَّة لسرعتها إلى الفهم ، وبعدها من التقعير".([1]) ، ويقول في موضع آخر:"وليست أمثلتنا الموضوعة في هذا الكتاب من الغريب لفظًا ولا البديع محاسن ، وإنما درَّجنا بها المبتدئين ، ودرَّبنا عليها المتعلمين ، لتحصل لهم بسهل لفظها وقرب مأخذها ، معرفة الطريقة إلى المقصد ، وحقيقة مكان المطلب ، ثم من ترقى بعد ذلك إلى ما هو أعلى رونقًا ، وأحسن ديباجة ، فلنا المِنَّة عليه ، إذ بنا توصل إليه ". ([2])

وإذا كان غرض الحُمَيدِيّ من سهوله الألفاظ وقرب المعاني أن يستوي في الانتفاع بتلك الرسائل الخاصة والعامة ، فإن ذلك لا يعني الابتذال ، وإلا لقال حتى يفهمها العامة ، أما أن يستوي الخاصة والعامة ، فهذا يعني بُعدها عن الغريب الوحشي ، وعن التعقيد والغموض ، لأن الهدف منها التَّمرس على طبيعة الكتابة في هذا الفن ، الذي قد لا يجيده كثير من خاصة أهل العلم واللغة ، لأنهم قد يفتقدون المهارة بطبيعة الكتابة والإنشاء في هذا الفن ، ومن هنا يقدم لهم هذه النماذج ليتمرَّسوا بها ، ويتدرَّجوا من خلالها لإجادة هذا الفن ، وبلوغ أعلى درجات البيان فيه ، لكنه حريص في نماذجه ، أن لا يحجب العامة من غير المتخصصين في اللغة والأدب عن الإفادة من تلك النماذج .

([1]) تسهيل السبيل لوحة رقم ٢.

([2]) تسهيل السبيل لوحة رقم ٨.

(هـ) الخصائص الأسلوبيَّة لرسائل الحُمَيدِيّ:

عاش الحُمَيدِيّ في القرن الخامس ، وكان ميلاده في منتصف العقد الثالث من هذا القرن ، ومن المعروف أن خصائص مدرسة ابن العميد في الكتابة الفنية كانت سائدة في هذا القرن ، حيث بدأت هذه الخصائص في الظهور على يد ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ، وحذا حذوه مجموعة من الكتاب ، كان أبرزهم أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ، المتوفى عام ٣٨٣هـ ، وأبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصَّابيّ ، المتوفى عام٣٨٤هـ ، الكاتب في دواوين آل بويه ، والصاحب بن عبَّاد ، المتوفي ٣٨٥هـ ، وهو تلميذ ابن العميد أبي الفضل ، والوزير بعد أبي الفتح بن العميد ، وأبو الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذاني ، المتوفى عام ٣٩٨هـ صاحب المقامات ومبتكرها ، وأبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي ،المعروف بالبَبَّغَاء، المتوفى عام٣٩٨هـ ، و عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثَّعالبي ، صاحب كتاب يتيمة الدَّهر المتوفي عام ٤٢٩هـ.

هؤلاء الكتاب ممن أرسوا معالم مدرسة جديدة كانت تنزع في الكتابة إلي الإكثار من السجع والبديع ، بل قصدوا إليهما قصدًا في رسائلهم ، ديوانية كانت ، أو إخوانية ، وكُتاب هذه المدرسة لم يقتصروا على هذين العنصرين ، على الرغم من كونهما ركني الطريقة الجديدة الأساسيين ، بل إنهم أكثروا من الاستشهاد بالشعر والمثل ، وتضمين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشَّريفة ، والإكثار من الجمل الاعتراضية والدعائية ، و إيراد الحوادث التاريخية .

وقد ظلت خصائص هذه المدرسة مسيطرة على الكتابة خلال القرن الخامس الهجري والنصف الأول من القرن السادس تقريبًا .

وقد سار الحُمَيدِيّ على نهج هذه المدرسة وتأثَّر بها في نماذجه بدرجة كبيرة، وسوف نتناول في الصفحات القادمة أهم الخصائص البارزة عنده ، وسنحاول جاهدين أن نقتصد في الحديث عن هذه الظواهر ، وأن نتناولها في سياق النظرة

الكلية – حتى لا نغادر ساحة الأدب إلى البلاغة – للرسالة ،مستنطقين أثرها على الفكرة والنص :

أولاً : السَّجـــع :

والسجع (بمعنى توافق فاصلتين أو أكثر في قافية واحدة) ليس ظاهرة جديدة ، لكنه كان معروفًا منذ العصر الجاهلي، بل نجده في أبهى صورة في القرآن الكريم ،ويرى بعض العلماء عدم تسميته في القرآن بالسجع ، وإنما يُسمى توافق الفواصل ، كذلك لم يخل كلام النبي ﷺ من نماذجه التي ترد عفو الخاطر ، وقد استنكر عليه الصلاة والسلام ما كان منه متكلفًا ومقصودًا لذاته ، واستعمله الكُتاب على مرِّ العصور، فقد عُرف السجع في رسائل عبد الحميد الكاتب (ت١٣٢هـ)، واعتمده ابن المقفع (ت ١٣٤هـ) طريقًا يستدعيه المقام ، فذكر في حديثه عن البلاغة أن السجع باب من أبوابها فقال :" ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرًا ، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا " ([1]). ويسير الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) على اعتدال في النهج ، تشف عنه رؤيته للسجع ، وإن كانت منقولة من غيره ؛ وهو ما لم تطل فيه الفواصل ، وجاء عفو الخاطر ، يقول في صفات السجع الجيد :"إذا لم يطل ذلك ، ولم تكن القوافي مطلوبة مجتلبة ، أو ملتمسة متكلفة ".([2])

و تعريف الجاحظ يعكس رؤية بصيرة ، فإن القوافي إذا طالت لم تسلم من الاجتلاب والاستكراه والتكلف ، وهذه أشياء تفسد السجع وتذهب برونقه . وإذا كان الجاحظ لم يلتزم السجع في إنشائه ، ولم يتخذه مذهبًا ، فإن ابن العميد (ت ٣٦٠ هـ) على

([1]) البيان والتبيين للجاحظ –١/٧٦– تح: فوزي عطوي – ط١ – دار صعب بيروت ١٩٦٨م.

([2]) البيان والتبيين ١/١٥٤ . وقصد الجاحظ بطول القافية طول الجملة ، لأن الكلام الموجز أوقع ، والسجع فيه أظهر ، ورأى أنه لو اشترط ألا تكرر القافية كثيرًا لكان أولى وأصوب ؛ لأن تكرار القافية هو الذي يُضيِّق على الناثر و يوقعه في التكلف .

العكس من ذلك قد التزمه في إنشائه واتخذه مذهبًا ، كما أنه أفاد من قانون الجاحظ في السجع المقبول ، فكان حريصًا على أن لا تطول فقراته .

و سار الحُمَيدِيّ في رسائله الإخوانية على نهج ابن العميد، فالتزم السَّجع مَذهبًا في إنشائها ، فلم تخل فقرة منه ، كما أنه كان حريصًا على الالتزام بقانون الجاحظ في السجع المقبول ، فجاءت فقراته موجزة ؛ وقافيته لا تتكرر إلا مرتين غالبًا، ومن أمثلة ذلك قوله في تهنئة من أطلق من سجن : " هنيئًا لمولاي فهكذا تكون عواقب الصبر، وعوائد الشكر، ومخايل الصدق، ودلائل الحق ، فتشفي المعتل، وتجبر المختل، وتحيي السَّعد ، وتعلي المجد ، فقرن الله بالصَّلاح أحواله ، وبالنجاح آماله، ولا أراه بعد هذه الغصة تنغيصًا، وجعل ما تقدم منها تمحيصًا " (١).

فالقافية تكررت في السَّجعة السَّابقة مرتين ، ثم أعقبتها أخرى مرتين ، على النحو التالي :(الراء – القاف – الدال – اللام – الصاد) ، وهكذا يسير على هذه الصورة حتى يصل إلى النهاية ، وربما يخالف الحُمَيدِيّ هذا المنهج ، ولكن ذلك قليل، فلم يشكل ظاهرة عامة تُقوِّض ما بَنَاه ، ولا تنقض ما قرَّرناه ، ومن ذلك تكرار الفاصلة أربع مرات أو ثلاث مرات ، ومنه قوله في تهنئة من استقال من نكبة :" لا كدر الله نعمته لديه ، ولا غيرها عليه ، ولا عاد بمكروه إليه".(٢)

وقد اعتمد الحُمَيدِيّ –غالبًا–على حسِّه الأدبي ليكثف النغم ، ويمنح سجعه حسنًا وبهاءً ؛ فعبر بالجُمل الموجزة القصيرة ، وواءم بين طول الجملتين ، ووازن بين نهاية الفاصلة في العبارتين ، فشع السجع ضياء ، وزاد إشراقًا . ولتنظر إلى قوله في التهنئة بعيد الأضحى : " سقاك الله بأكواب النَّعيم ، وألبسك لباس التَّبجيل والتَّعظيم ، وقدَّمك في مقدِّمات الرِّضا ، وجمَّلك بألوية بلوغ المُنى ، وجعلك بكلِّ جميل موصولاً ،

(١) تسهيل السبيل لوحة رقم ٥٠.

(٢) السابق لوحة رقم ٤٩.

وإلى كلِّ خير محمولاً "(١) فمثلا (جعلك بكل جميل موصولا – إلى كل خير محمولا) تشترك الجملتان نسبيًا في الطول ، فكل منهما مكونة من أربع كلمات ، والكلمة الأخيرة في الجملتين على وزن مفعول ، وزاد التنوين فيهما من النغم ، وتكرار اللام في الجملتين زاد الترابط النغمي بين الجملتين ، وتعاون على ذلك سلاسة كلماته ، وعدم طولها – على طُول كِتابه – فجرى الكلام كالعذب الزلال. ويبدو أن حرص الأندلسيين في الرسائل على السجع ظهر جليًا في كل العصور (٢) .

ثانيًا : المحسنات البديعية:

والمحسنات البديعية في رسائل الحُمَيدِيّ عديدة ، وقد حرص على الإكثار منها في رسائله ، وهذه أهم المحسنات التي انتشرت في رسائله :

١. الجناس

و رسائل الحُمَيدِيّ حافلة بالجناس بأنواعه المختلفة ؛ ومن أمثلة الجناس التام المماثل ، قوله فيما يقال تسلية لرئيس غزا فلم يلق ولم يفتح له : " وجعل سهام عزائمه مصيبة ، ولا أعدم أعداءه مصيبة "..(٣)

فالأولى: من الإصابة ، أصاب يصيب إصابة ، فهي مصيبة ، بمعنى محققة للهدف. وأما الثانية فهي من قولهم : أَصابهم الدهرُ بنفوسهم وأَموالهم: فَجَعَهم فيها. وقد استطاع من خلال الجناس أن ينوع في جوانب الصورة ، وأن ينقل العواطف المتشاجرة من ساحة الميدان إلى واحة البيان .

(١) السابق لوحة رقم ٢٣.

(٢) انظر : النثر الأندلسي في عصر الموحدين – د علي الغريب الشناوي – ص ٢٨١- ط مكتبة الآداب ٢٠٠٩م .

(٣) تسهيل السبيل لوحة رقم ١١٣.

ومن الجناس قوله فيمن أراد سفرًا عامًا :"فكيف يكون الحال ، إذا رمت الرِّحال ، ودنا التِّرحال ".([١]) ، فهنا ثلاث كلمات بينها اختلاف في عدد الحروف، الأولى بمعنى: هيئة الإنسان وهو ما كان عليه من خير أَو شر، والثانية بمعنى : مركب البعير. والثالثة بمعنى : السفر . ألقى من خلال الجناس الأضواء على أهم جوانب القضية في هذا المشهد (الحال – الرِّحال – التِّرحال) والأولى (الحال) ترتبط إيجابًا وسلبًا بقرب أو بعد (الرِّحال – التِّرحال) ، فالتَّشابه كثف النغم في الكلام، ومنح كلًا من الألفاظ بريقًا في السَّمْع والشَّكْل ، وكأنَّه قِطعة أُرجوانية في النَّص .

٢. الطباق

الطباق لغة: الجمع بين شيئين . طابق بين الشيئين: جعلهما على حد واحد. اصطلاحا : الجمع بين المتضادين في الكلام مثل: اليد العليا خير من اليد السُّفلى، وقسَّمه العلماء إلى طباق إيجاب وطباق سلب .

والطباق له الحظ الأوفى في نماذج الحميدي ؛ لأن معظم رسائله مبنية على الصورة المتقابلة التي لاقت انتشارًا بفضل الإسلام وكتابه؛ لأنها – أي الصورة المتقابلة –كانت الوسيلة الأنجح في الحديث عن صورة التَّدافع التي بُني عليها الكون : الخير والشر ، والجنة والنار ، والمسلم والكافر ، والسماء والأرض ، والنصر والهزيمة . وطباق الإيجاب هو الأكثر انتشارًا في رسائل الحُمَيدِيّ ؛ ومن أمثلته قوله في الدعاء عند إرادة الرحيل للحج :" سهَّل الله على مولاي هذا السَّفر ، وقرَّب منه فيه الوطر ، وجعله أفضل رائح وغاد ، ومهَّد له في السلامة أسعد مِهَاد، وكتبه في هذا المُراد من ذوي الرَّشاد ، وأثبته عند الوصول في أهل القَبُول ، وأعاده في الإياب موفور الثَّواب ، وصيَّره في كلِّ حال مَبلغ الآمال".([٢])

([١]) السابق لوحة رقم ١١٨.

([٢]) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٢٠، وانظر أمثلة أخرى ١٠٦ ، ١٠٩ ،١٢٣ .

جاء الطباق في(رائح – غاد) متساوقًا مع المعنى العام للرسالة ، فهي قائمة على الصورة المتقابلة في المكان ؛ السعادة والسرور في الحل والترحال ، فأخذ يدعو له في الحالين(عند الوصول – وعند الإياب) ، فجاء الطباق مناسبًا لذلك ومستوعبًا له .

ومن أمثلة طباق السلب قوله فيما يقال في وقت النوم : " لئن نامت عيون جسمك، فما نامت عيون حزمك ، وإن خفتت لحظات طرفك بالإغفاء ، فما خفيت مواقع سعيك في الأعداء ".([1]) ، هنا أثبت النوم لعيون الجسم ، ونفاه عن عيون الحزم ليُبرز المعنى ويؤكده . كما أثبت الخفوت للحظات الطرف ، ونفاه عن مواقع سعيه في الأعداء؛ لأن مضمون الرسالة قائم على معنى طريف وهو (النائم اليقظ) ، لذا كان طباق السلب دون غيره هو الأوفق في رسم هذه الصورة (نامت – ما نامت) ، لما في نفي الإثبات بنفس لفظ الإثبات من لطف بالغ ، واقتراب باللفظ نحو الجناس.

٣. رد العجز على الصدر :

وهو أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين في اللفظ دون المعنى، في أول الفقرة والآخَر في آخرها . ومن أمثلته قوله فيما يقال للخارج من الابتناء : " سرني . أدام الله عزك . طيب سرائك ". ([2]) فقد بدأ بسرني وختم بسرائك . وفي ذلك تزيين للجملة ، وتطريب للأذن ، وإيناس بالمعنى. ومنه قوله في التهنئة بمولود ذكر:" وجعله سابقًا في ميدان الفضائل سباقك ، مفارقًا لخذلان الرزائل فراقك " ([3]).

ثالثًا : الاقتباس والتضمين من آيات القرآن والحديث النبوي :

([1]) السابق لوحة رقم ١٧.
([2]) تسهيل السبيل رقم ٥٥.
([3]) السابق لوحة رقم ٥٨.

وقد اختلف أهل اللغة في الاقتباس والتضمين أهما شيء واحد أم أن ثَمَّة فرق بينهما؟ والقائلون بالتفريق اختلفوا أيضا في معنى التضمين ؛ فذهب بعضهم إلى أنه تضمين الشعر مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورًا عند البلغاء .

وقال آخرون : الاقتباس هو أخذ كلمات أو عبارات قرآنية ، أو من الحديث النبوي مع التغيير فيها دون نسبتها إلى قائلها الحقيقي ، أما التضمين فهو أخذ كلمات أو آيات بنصها ، أو أحاديث نبوية دون التغيير فيها وأيضا لا تنسب لقائلها .

فاجتمعا في عدم الإحالة إلى القائل ، وافترقا في حدوث شيء من التغيير يطرأ على الكلمات أو العبارت المأخوذة في الاقتباس خاصة .

ومن هنا يمكن أن نقول إن معظم ما ورد في رسائل الحُمَيدِيّ يدخل تحت باب الاقتباس .

(أ) الاقتباس والتضمين من آيات القرآن:

ونبدأ بالأمثلة التي يمكن أن تدخل تحت باب التضمين ، ومنها قوله فيما يقال في خفض الأنثى :" وبوأها مبوأ صدق من إقبالك ".(١) فقوله (مبوأ صدق) هو من القرآن بنصه وذلك قول الله عز وجل : ﴿وَلَقَد بَوَّأنَا بَنِي إسْرَائِيلَ مُبَوَّأ صِدِقٍ وَرَزَقنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ سورة يونس آية :٩٣.، وتضمين نص الآية يدخل في باب الصِّيغ الأُسلوبية الرَّفيعة التي يستعين بها الشاعر والناثر على المواصلة ، كما أنها تصل بالمعنى إلى درجة عالية ، وتصل بالصورة إلى غاية البلاغة .

(١) تسهيل السبيل لوحة رقم ٦٧.

ومنه قوله في تسلية مسجون :"ولا شك أن مع العسر يسرًا ، فقول الله صدق". ([1]) فهو من قوله تعالى : ﴿ إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ﴾ سورة الشرح آية :٥. ، والآية خير معين في التسلية ، وبها التأكيد على زوال المحنة وانكشاف الغُمَّة .

وإذا تحولنا إلى أمثلة الاقتباس وجدناها أكثر حضورًا ، ومن أمثلتها قوله في تسلية مسجون :" لا تأس . أيدك الله . فالسيف قد يغمد عن الضِّراب ، والشمس قد تتوارى بالحجاب ، ولكن انظر هذه بعد الشروق ، وذاك إذا طفق مسحًا بالسوق".([2])

فهو ينظر إلى قول الله تعالي: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَاب * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ .سورة ص آية:٣٢-٣٣.

أحسن في استلهام الآية وإعادة الترتيب بما يتناسب مع غرضه ، وأجاد في عدم اقتباسه (والأعناق) حتى يحافظ على السجع .

(ب)الاقتباس والتضمين من الحديث النبوي:

والتضمين بمعنى أن ينقل الحديث نصًا ، فهذا لا نراه في كتاب الحميدي، وإنما نرى ما يقترب من نص الحديث ومن ذلك قول الحُمَيدِيّ فيما يقال فيمن انصرف من طريق حج ، أو نحوه لعذر :" وإنما عليه عزائم الاجتهاد ، وعلى الله تتميم المراد على أنواع الطاعات، تنال فوائدها بالنيات ". وهذا مأخوذ من قول النبي ﷺ " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ... " ([3]).

([1]) تسهيل السبيل رقم ١٠٢.
([2]) السابق لوحة رقم ١٠٢ ، وانظر مثال آخر لوحة ٥٧ .
([3]) صحيح البخاري – محمد بن إسماعيل – ٦/١ – تح محمد زهير بن ناصر الدين – ط١ – دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ .

ومنه قوله في التهنئة بولادة أخت :" قد حَفَّها التأنيس ... فأتم الله بها إيناسك ...".(١)

وقوله :" القاصدة بأنسها إليك ...وأتم أنسك بها ".(٢)

وهذا المعنى ذكره الحميدي في معظم أمثلته عن التهنئة بولادة أخت ، وفيما يقال فيمن ولدت له أنثى ، وهو أنها تؤنسه ، وهو نص كلام النبي ﷺ في حق من ولدت له أنثى ؛ ومن ذلك قول الرسول ﷺ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا تُكْرِهُوا الْبَنَاتِ ، فَإِنَّهُنَّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ " (٣). وإيراد الحديث بمعناه يدفع بقايا الجاهلية المتمثلة في تفضيل البنين على البنات ، ويعلي من نظرة الإسلام الإنسانية الرائعة .

أما الاقتباس ، وهو نقل الحديث مع تغيير اللفظ أو بالمعنى فما أكثره في رسائل الحُمَيدِيّ ؛ ومن أمثلته قوله فيما يقال تسلية لمن نكح أبوه أو أمه : " قلت لا ضير ، فما في الحلال ريبة ، ولا في المباح نقيصة " (٤) فهذا المعنى دائر في البيان النبوي ، وقد تردد في العديد من الأحاديث لأن عليه قيام الدين ، وصدق اليقين ، ومنه كما قوله ﷺ فيما يرويه زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ الْأَنْصَارِيُّ : قَالَ : سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ . فَقَالَ : " الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلَيْهِ " .(٥) ومن ذلك قول الحُمَيدِيّ في تسلية مريض :" لكن

(١) تسهيل السبيل لوحة رقم ٦٣.
(٢) السابق لوحة رقم ٦٣.
(٣) مسند أحمد – أحمد بن حنبل – ٢٨/ ٦٠ – تح شعيب الأرنؤوط – ط١ – مؤسسة الرسالة – ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م .
(٤) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٠٨.
(٥) مسند أحمد ١٨١/٢٩.

علمت أن الله جلت قدرته أراد أن يثيبه من جهة الصبر ، كما أثابه من جهة الشكر ".([1])

وهذا ينظر إلى قول الرسول ﷺ عَنْ صُهَيْبٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ". ([2])

رابعًا : تضمين الشعر :

حظي هذا النوع من التضمين بالتنظير والتقعيد ، والإشارة إلى أهميته ومكانته في الشعر دون النثر؛ لأن الحركة الأدبية والنقدية – وخصوصًا في المشرق – دارت في فلك الفن الشعريّ دهرًا طويلًا . والتضمين يأتي لتأكيد فكر الأديب ، وإثبات صحة رأيه، والخروج بالمتلقي من حال التشكك والاضطراب إلي الثبات واليقين بعرض الفكرة في ثوب يعرفه المتلقي ويؤمن به .

وتضمين الشعر في رسائل النثر علامة جودة واقتدار ، وقد حرص عليه الأندلسيون ،يقول ابن عبد الغفور الكُلاعيّ (ت ٥٥٠هـ) "وكان المجيد كثيرًا ما يضمن في رسائله أشعاره وأشعار غيره، فكان إذا ضمَّن أشعاره يوافق بين قافيتها وبين السجع الذي قبلها، ليُعلم بذلك أنَّ الشعر له؛ وكان إذا ضمن أشعار غيره خالف بين السَّجع والقافية؛ وهذا حسن يجب أن يمتثله من أراد إحكام صنعة الكلام".[3]

([1]) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٠٤، وانظر مثال آخر لوحة رقم ٦٣ .

([2]) شعب الإيمان للبيهقي – ١١٦/٤– تح: محمد السعيد بسيوني زغلول – ط١– دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠هـ .

([3]) إحكام صنعة الكلام – أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي - ص ٧١ – تح محمد رضوان الداية – ط٢ عالم الكتب بيروت ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م.

وأشار الحُمَيدِيّ في نهاية كتابه أن الرسائل الإخوانيَّة مما يحسن فيها تضمين الشعر بخلاف الرسائل الديوانية .([1])

وجاء التضمين عنده من شعره ما عدا نموذجًا واحدًا لغيره ، وقد نص على اسمه ، واختلف موقع التضمين في الرسالة ما بين أولها ووسطها وآخرها ، وتنوع حجمه ما بين بيت وأبيات ، ومن أمثلته قوله فيما يقال في تسلية رئيس غزا فلم يلق ولم يفتح له :

"وعُوِّض من تعب القتال بالنُّزهة ، وأبى لأعدائه بالوقوف بإزائه ، أو التَّطلع إلى حَوْبَائِه ، وقد مَنَعتْ جيوشه عُيون الخضراء من رؤية الغبراء ، وملأتْ ما بينهما من الغُبار بمثل الكُنْهُور([2]) المِدرار ، فلو كانت الزَّرقاء ([3]) حيَّة تراه لقضت بأنه البحر الخِضم في مرآه، ولتشكَّكتْ بين وقوفه وسُراه : "([4])

جُيُوشٌ تَغِيبُ الشَّمْسُ تَحْتَ عَجَاجِهَا وَلَيْسَ سِوَى زُرْقِ العَوَالِي نُجُومُهَا

وصف جيش ممدوحه بأنه جرار عَرَمْرَم يغطي الخضراء ، ويمنعها من رؤية السماء ، فلو رأته الزرقاء ، لقضت بأنه البحر الكبير، ولخانها التقدير ، بين وقوفه والمسير . ثم ضمن بيته فزاوج بين الشعر والنثر ، ورسم صورة جديدة لهذا الجيش – من خلال الشعر – وقد ضاق به الفضاء ، وحجب عن الأرض الضياء ، وتلألأت رماحه كنجوم السماء . لقد نظم – بجمعه الشعر و النثر– المتناقض ، ونضد المتنافر ، فرسم صورة رائعة للجيش .

([1]) انظر : تسهيل السبيل لوحة رقم ١٩٤.

([2]) الكنهور : العظيم من السَّحاب ، وقيل السَّحاب المتراكب كأمثال الجبال . اللسان (كنهر) .

([3]) هي زرقاء اليمامة ، كانت حادة البصر ، وقصتها مشهورة ، وأخبارها منثورة.

([4]) تسهيل السبيل لوحة رقم ١١٣.

ومن التضمين ما بدأ به الحُمَيدِيّ رسالة له فيما يقال في وصف الشوق والفراق :"

كتَبْتُ وَبِي شَوْقٌ إلَيْكَ لَوْ انَّهُ ... لَدَى جَبَلَيْ نُعْمَانَ لَمْ يَتَخَلَّفَا
وَطَارًا عَلَى مَا فِيهِمَا مِنْ تَثَاقُلٍ ... فَمَا بَالُ شَوْقِي لا يُرَى لِي مُخَفِّفَا
سَلامٌ عَلَى دَهْرٍ تَوَلَى وَكَانَ لِي ... إذا شِئْتُ فِي كُلِّ المَطَالِبِ مُسْعِفَا
مَضَى وَاتَى دَهْرٌ إذا صَحَّ وَعْدَهُ ... وَقَرَّبَ مِنْ مَوْعُودِهِ عَادَ مُخْلِفَا
فَلِلَّهِ قَلبِي ،مَا اشَدَّ اصْطِبَارَهُ ... عَلَى مَضَضٍ لَمْ يَالُ انْ يَتَحَيَّفَا

مضض – وأبي مولاي – أليم ، وخَطب – وحقِّهِ – جسيم "(1).

خرج بالتضمين من رتابة النثر إلى فضاء الشعر ، ومن فيض العقل إلى أماني القلب ، وصَبَّ – بالأبيات – دفقة شعورية هائلة ، تصور حاله ، وما به من شوق وألم . ومن جودة المطلع فنيًا؛ بدأت الأبيات بالفعل (كتبت) الذي ناب عن التمهيد للشعر في الرسالة ، وأَحْكَمَ في ربط نهاية الأبيات بالرسالة ؛ فعمد إلى كلمة (مضض) الموجودة في آخر بيت وكررها في أول جملة نثرية بعده .

ومن الملاحظ أن تضمينه للشعرجاء في العلاقات الشخصية (وصف الشوق) (الخطاب بوصف الحال) (في وصف ورود الكتب) (الاعتذار من حضور وداع) (عتاب عن تأخر جواب) (شكر والد) ، وهي أغراض تكون المشاعر فيها جياشة، وصوت القلب يعلو فيها على صوت العقل . ومن جانب آخر تبقى هذه الأشعار مؤشرًا وشاهدًا على أن الحُمَيدِيّ كان جياش العاطفة في رسائله فتجاوز فيها دور المُعلم الذي يصنع أمثلة إلى دور الأديب المرسِل ، إلا أن يكون قد أعدَّ الشعر في

(1) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٣٢.

مناسبات سابقة ثم جلبه في نماذجه ، ونحن نستبعد ذلك لشدة الترابط بين الرسائل والأبيات .

خامسًا : الأمثال والحكم :

أما الحكم فقد شاعت في رسائل الحُمَيدِيّ ، وانتشرت انتشارًا واسعًا ، ولا عجب في ذلك ، فقد أشرنا سابقًا إلى أن الحُمَيدِيّ تأثر بمدرسة ابن العميد ، وذكرنا أن رواد هذه المدرسة وأعلامها عرفوا بالإكثار من الحكم والأمثال في كتاباتهم ورسائلهم، وقد عقد الثعالبي – أحد رواد هذه المدرسة – في كتابه (سحر البلاغة وسر البراعة) فصلًا بعنوان (كتاب الحكم والأمثال وما يحذو حذوها) جمع فيه بعض حِكم أعلام هذه المدرسة – ومنهم : علي بن محمد الإسكافي – ابن العميد – الوزير المهلبي – أبو إسحاق الصَّابيّ ، ومن هذه الحكم : آخر الأحياء فناء ، السِّنين تُغير السُّنن ، الدهر طعمان حُلو ومُرّ ، القلب لا يملك بالمخاتلة (1)، وهي تتشابه إلى حدّ بعيد مع حكم الحُمَيدِيّ الشائعة في رسائله ، مما يؤكد على نسجه على منوال هذه المدرسة.

ومن حكم الحُمَيدِيّ الموجودة بكثافة في رسائله قوله :

١. بأوائل الأمور يُستدل على أواخرها .(2)

٢. عند الشدائد تُنتظر الفوائد .(3)

٣. من تقدم عُلُّوه كثر عَدُوه ، والحاسدون على غِل وإن خضعوا . (4)

٥. الأحوال سريعة الزَّوال . (1)

(1) انظر : سحر البلاغة وسر البراعة للثعالبي ص١٨٥– تح: عبد السلام الحوفي – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

(2) تسهيل السبيل لوحة رقم ٤٣.

(3) السابق لوحة رقم ١٠٣ .

(4) السابق لوحة رقم ١٠٣.

٦. العزم من أكبر الفوائد .(٢)

٨. " العزيمة غنيمة ".(٣)

وحِكم الحُمَيدِي في معظمها قريبة المعاني ، مما تداولته ألسنة السابقين ،أو دارت في حياة المتلقين .

وأما عن الأمثال فلم نعثر إلا على مثل واحد ذكره الحُمَيدِيّ في متن رسالة له فيما يقال تسلية لرئيس غزا فلم يلق أو لم يفتح له ، وقد نصَّ على كونه مثلاً ، فقال :" لمولاي – أدام الله تأييده – في صاحب الشَّريعة ، ورسولُ رب هذه الخليقة أعظم الأُسوة ، وأكرم الأُنس والقدوة ، فقد كان عليه السَّلام خليل ربِّ العالمين ، والمبعوث لنصر هذا الدِّين ، ثم هو لا تجرى الأمور على إراداته ، ولا يصل في كلِّها إلى أقصى مسرَّاته، لأنَّ صاحب التَّدبير قد سبق بأحكام التَّقدير ، لكنَّه تعالى أومض إليه بالتَّسلية أكرم إيماض (٤)، وجعل له في كلِّ ما فات أفضل الأعواض ، وقد صرف الهَدْي عن مَحِلِّه يوم الحديبية ، وردَّ الكتائب من ثقيف دون الأُمنيَّة، وما يقول مسلم

---

(١) السابق لوحة رقم ١٠٦.

(٢) تسهيل السبيل رقم ١١٠.

(٣)السابق لوحة رقم ١١٣.

(٤) الإيماض : مصدر فعله أومض ، ومعناه كومض ، يقال ومِضَ البرق : لمع لمعًا خفيفًا ولم يعترض في نواحي الغيم . اللسان (ومض) .

أنَّه خاب ، ولا أنَّه في العزيمة ما أصاب ، وقد سبق المقال بأنَّ الحرب سِجَال (١)، ولعل الأفضل – أطال الله بقاء مولاي – فيما غُيِّب ، والخِيَرَة فيما قد وهب ".(٢)

أقبل الحُمَيدِيَّ على موضوعه مباشرة ، فبدأ بالمسند لأهميته، وفصل بينه وبين المسند إليه بجملة دعائية في غاية الجودة (أدام الله تأييده) ؛ فما يناسب المكلوم ، ويخفف عن المهزوم ، هو الدعاء له بالتأييد الغائب عنه ، ثم قدم الجار والمجرور (في صاحب الشريعة ورسول رب هذه الخليقة) لما فيه من التسكين ، فكما يقال : (المصيبة إذا عمت هانت ، وإذا ندرت هالت) ، وأحسن منه قولي : (المصيبة حين تعُم لا تغُم) ، فما بالك بإصابتها أكرم الخلق ، ثم أخذ يسوق حوادث إسلامية ظاهرها الهزيمة والقهر ، وباطنها الفلاح الظُّفر ، وأخيرًا استحضر المثل (الحرب سجال) الذي نطق به المنذر بن ماء السماء ، ودار على ألسنة القادة عند نزول البلاء ، ليدل – من خلاله – على استحالة دوام الظُّفر ، واستبعاد استمرار النَّصر .

وقريبًا من المثل في الاستشهاد الحوادث التاريخية :

فرغم قصر الرسالة لدى الحُمَيدِيّ في معظم نماذجها ، وتعارض هذا القصر مع إيراد الحوادث والاستشهاد بها ، فقد آثر ألا يترك ملمحًا فنيًا من ملامح مدرسة ابن العميد ، تلك المدرسة التي تأثر بها وسار على نهجها ، ومن هنا وجدنا بعض الرسائل تستشهد بالحوادث التاريخية ، وأهم حدث استشهد به الحُمَيدِيّ وكرره هو الحدث التاريخي الإسلامي في انصراف النبي ﷺ عن المسجد الحرام بعد قربه له، وقد تم ذلك بموجب عقد صلح الحديبية .

(١) (الحرب سجال) مثلا تضربه العرب للفريقين يتبادلان الظفر. معجم الأمثال – أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني – ٢١٤/١– تح : محيي الدين عبد الحميد – ط – دار المعرفة – بيروت ، معجم الأدباء لياقوت الحموي – تح :إحسان عباس– ٢٥٩٨/٦، ٢٦٠٠ – دار الغرب الإسلامي . بيروت ط ١– ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م

(٢) تسهيل السبيل لوحة رقم ١١٥.

هذا الحدث الإسلامي المعروف تناوله في أكثر من رسالة ، وفي أكثر من غرض ، من ذلك " فيما يقال فيمن انصرف من طريق حج ونحوه لعذر قبل أن يصل " ([1]) والموضوع يستدعي الحادثة فهو ألصق بالحدث التاريخي ، فالنبي ﷺ كان خروجه من أجل الحج ، وانصرف عنه لعذر ، وهذا بعينه الغرض من الرسالة الأولى.

ويلح على الاستشهاد به ، فيورده (فيما يقال تسلية لرئيس غزا فلم يلق ولم يفتح له)([2])

ومن الأحداث التاريخية التي استشهد بها الحُمَيدِيّ في رسائله ذلك الحدث الذي نص عليه في المثال الأخير وهو (رجوع كتائب المسلمين عن ثقيف دون فتح حصنهم) ، وقد تكرر الاستشهاد بهذا الحدث مرة أخرى مع يوم الحديبية في رسالة دارت حول الغرض نفسه حيث يقول :"وجعل الله له فيما فات أفضل الأعواض ، وقد صرف الهدي عن محله يوم الحديبية ، وردَّ الكتائب من ثقيف دون الأمنية ، وما يقول مسلم أنه خاب ".([3])

سابعًا : الصورة الفنية :

مع أن النثر خطاب للعقل ، وهو يقتضي من الكاتب الاتكاء على المعاني العقليَّة ، والحُجج المنطقيَّة أكثر من اعتماده على التصوير ، أو التحليق في فضاء الخيال ، فإننا وجدنا عنصر الصورة يطل علينا واضحًا جليًا من رسائل الحُمَيدِيّ ؛ والسبب في ذلك أن رسائله من النثر الوجداني ، الذي يتآخى مع الشعر في أغراضه

([1]) تسهيل السبيل لوحة رقم ١١٠.

([2]) تسهيل السبيل لوحة رقم ١١٤.

([3]) السابق لوحة رقم ١١٥.

ومعانيه وأهدافه وخصوصًا شعر الإخوانيات [١].وقد توسل بأنواع كثيرة من الصور في نقل المعنى وتقريبه .

من ذلك الصورة البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية ، وقد انتشرت في رسائل الحُمَيدِيّ بكثافة، ومن الملاحظ ميله إلى الاستعارة بكافة ألوانها ، ومن أمثلة التشبيه قوله فيما يقال للوزراء : " حتى صارت الخلافة العالية . أجل الله مقدارها، وكثر أنصارها ، في رتبة من تحسين مراتبها تضاهي زينة السماء بكواكبها".([٢]) ، شبه الخلافة بمراتبها بالسماء بكواكبها ، فزينها ورفعها إلى عليين .

ومن أمثلة الاستعارة في رسائله قوله في الدعاء عند الرحيل للغزو : " ولا زالت السعادة تحفه ، والتيسير يزفه حتى يصل مسرورًا منصورًا ".([٣]) ، فشخص السعادة والتيسير في موكب الوداع ، ليجعلهما حارسًا لممدوحه في غزوه ورجوعه من مباغتة الأحزان .

ومن أمثلة الكناية قوله في ابتداء عقد الود:" قد شهر من فضل مولاي ومعاليه ، وحسن عواقبه ومباديه ، ما ألزم الكل ودَّه ، وأثبت لديهم رشده ، وأوجب عليهم الاتصال بوصله ، والتعلق بحبله ".([٤]) واتكائه فيها على القرآن (بحبله) يعمق من معناها .

([١]) انظر:الإخوانيات في الشعر الأندلسي–علي الغريب الشناوي– ط١ – مكتبة الآداب ٢٠٠٦م.

([٢]) تسهيل السبيل لوحة رقم ٣١.

([٣]) تسهيل السبيل لوحة رقم١٢٠.

([٤]) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٢٣.

لكن من الملاحظ على هذا النَّمط من التَّصوير أنه تقليديّ ، لم يخرج فيه عن أعراف الصورة الموروثة ، ولم يجنح فيه إلى التجديد أو الاختراع ، فهو فمثلا لا يعدو في المدح تشبيه الممدوح بالشمس والقمر والنجوم ...إلخ ([1]) .

أما الصورة الكلية أو الصورة اللوحة:

فقد قصرها العلماء على الشعر ([2]) ، وعرفوها بأنها القصيدة كاملة أو سلسلة من الأبيات – وهي تكثر في الشعر القصصي – تتعاون في رسم مشهد واحد ، لخلق بؤرة رؤيوية واحدة ، في لوحة واحدة ؛ لتفضي ببوحها النهائي في انفجار مفاجئ ، يزلزل المتلقي([3]) ، والحق ، لقد تَجَنَّى العلماء على النَّثر حين قصروا هذه الصورة على الشِّعر ، لأنَّ النَّثر العربيّ بوحدته العضوية والموضوعية ميدان خصب لها ، وأكثر ملاءمة للاحتفاء بها . ومما ساعد على نمو هذه الصورة في رسائل الحُمَيدِيّ وحدة الغرض والهدف ، وعدم تشعب الرسالة إلى أفكار جزئية ، ومن هذه الصور رسالته في تسلية مسجون أو منكوب ، اخترت منها:" الغالب – أقال الله مولاي فيما طرأ من الأخبار، ووُجِدَ في الآثار– أنَّ مرارةَ الأكدار إنَّما تَحِلُّ بذوي الأخطار ، ولا غَرْوَ، فقد تفلُّ السُّيوف ، ويعتري الشمسَ الكسوفُ ، ويدخل البدر في السِّرار، ويَخْنَسُ النَّجم إلى مقدار ، ولكن لابدَّ من صِحَّة بعد الاعتلال، ورجوع إلى الكمال ، والعاقبة للمُتقيين ... " ([4])

هذه الصورة الكلية ؛ عبارة عن صور جزئية لأشياء مختلفة يجمعها خيط واحد ، حاول بها أن يُرَوِح عن المنكوب ، ويُسَرِّي عن المسجون ، وقد أحسن فيها غاية

([1]) انظر أمثلة أخرى : تسهيل السبيل لوحة رقم ١٨ -٣١-٥٢-٩١-١١٦-١٢٣-١٢٥.

([2]) انظر : البعد الآخر في الإبداع الشعري – محمد أحمد العزب – ص٣٨٤ – مطبعة رفاعي القاهرة – ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .

([3]) السابق الصفحة نفسها .

([4]) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٠٢.

الإحسان ؛ في جمعه في صدر الرسالة بين (الأكدار وذوي الأخطار) فالتلازم ضرب لازم ، فسلَّى المسجون ، وسكَّن من روع المنكوب ، وأجاد في حشد الصور (تفل السيوف) ، (يعتري الشمس الكسوف) ،(يدخل البدر السِّرار) ، (يخنس النجم) فصور الكون في لحظة حبس أو أسر ، فانظر إلى لطف الملاءمة بين ظاهر الصور وظاهر الحال ، وأجاد حين فصَّل القول في المشبه به دون المشبه ، فتجنب الحديث عن سبب النَّكبة والأسر ؛ لأنه مما يُكدر النَّفس.

ومن أمثلة هذه الصورة الكلية مثاله الثاني في وصف الشوق والفراق ، اكتفيت منه بقوله: " أمَّا ما أنا عليه – أدام الله عزَّ مولاي – فما لا أحتاج إلى وصفه ؛لأنَّ مثاله عنده، ومرآته لديه ، إذ أجزاؤنا مُتَّصلة بالوداد ، وقلوبنا مُرتبطة بجميل الاعتقاد ، إلا أنَّ هذا الفِراق قد أَمَرَّ من عيشي ما كان حلا ، وأبعد من أُنسي ما كان دنا ، وفي كلِّ ساعة تثور كوامن لوعتي وتتأكَّد، وتتأجج نيران وحشتي وتتزيد ، ولولا أنَّ مولاي حاضر في فِكري، وشاهد لدى توهمي ، لكان شوقي أشدَّ، ومزاج أسفى أحدَّ ، ولكني أونس نفسي بذكره ، وأُعلِّلها بتوهم قُربه ، فأجد لذلك جزءًا من راحة الموت ، وحظًا من التنفس على خَرْتٍ "([1])

والصورة تدور على وصف حال المُرسِل وما يعانيه من ألم وشوق بسبب البُعد، وقد أحسن فيها غاية الإحسان ؛ف (ما أنا عليه ... مثاله عنده) حِجاج عقليّ لطيف، يحيل به على حال المرسَل إليه في وصف حاله ، ويؤكد به صدق أقواله ، و(الفراق أمرَّ من عيشي ما كان حلا) و(تثور كوامن لوعتي) و(تتأكد نيران وحشتي) تشخيص يصوره وقد لازمته الأحزان ، وتمكنت من قلبه الآلام ، فأحاطته كالسوار والمعصم ، والقلادة والعنق ، و(الموت) و(التنفس على خَرْت) تعبير يصور نهاية المطاف ، ويُنهي حاله إلى الإتلاف ، و(مولاي حاضر في فكري) و(أونس نفسي بذكره)

([1]) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٣١ .

و(أعللها بتوهم قُربه) صور قريبة من حديث الشعراء عن مزار الطيف ، إلا أنَّ في حضور الطَّيف شقاء وعَناء ، وفي تلك تصبُّر وشفاء. وما أحسن ألفاظه المستعرة المتألمة ، وكلماته الباكية المبكية، التي تآخت – بذلك – فناسبت الموضوع والمقام ، وقامت بالتعبير عما يعانيه خير قيام .

وبعد ...؛ فلولا خشية الإطالة وخوف الملالة لزدت في الأمثلة والتحليل ، وبسطت القول موردًا من الصور الكثير ، ولكني اقتفيتُ قول القائل :حسبي من القلادة ما أحاط بالعنق ، فاكتفيتُ بغُرَّة لائحة ، وسِمة واضحة .

من المآخذ النقدية على الحُمَيدِيّ في رسائله :

سبيلنا في هذا الباب ، أن نسوق ما أخذناه على الكاتب والكتاب ، من مآخذ متنوعة، مع شرح أسباب وقوعه في هذا الخطأ ، واقتراح الحل الأمثل ، والموازنة بين المعنى في الحالتين .

عيوب موسيقية :

ثمة أخطاء كثيرة متعلقة بالسجع وقع فيها الحُمَيدِيّ ، وهو أمر طبعي إذ أقام الكتاب على السجع ، وقصده من كل سبيل ، ومن هذه الأخطاء قوله في تهنئة بنعمة واردة:" والله عَزَّ وجلَّ ، يُغبِّطُ مولاي بهذه السِّيرة ، ويزيده فيها بصِيرة بفضله"([١]). لو حذف بفضله لتمَّ السجع ونقص المعنى (تم السَّجع وفات الثَّناء على الرَّب) ، وأجود من ذلك لو قال (ويزيده فيها بفضله بصيرة) لتمام السجع والمعنى ، فإن احتج علينا بأن في ذلك توالي الضمائر قلت : لا بأس في ذلك لو كان مرجع الضمير معلومًا ، وقد بدأ الله به لوضوحه في قوله: (قل هو الله أحد).

([١]) تسهيل السبيل لوحة رقم ٤٨.

ومن ذلك قوله فيما يقال للأدباء :" قد أذنت الأسماع لجميل إعرابك ، وتأذنت الألسنة بجمال أدبك " ([1]) ، وهنا الخلل في ختام الجملة الثانية ؛ إذ كان عليه أن يقول :(وتأذنت الألسنة بجمال آدابك) كما قال في الأولى (إعرابك) ؛ إذ تتوافق كلمة (آدابك) موسيقيًا مع كلمة (إعرابك) حتى وإن اختلفا في نوع الصيغة ، والمعنى مع هذا التعديل تام وصحيح .

–لكن أحيانًا يعوق السجع المعنى ، ومن ذلك قوله في تهنئة من قدم أبوه : " والآن فقد صَحَّ لمفاخره الافتخار ، وأَمْكَنَهُ من النَّوائب الانتصار"([2]) الجملة الثانية (أمكنه من النوائب الانتصار) ترتيبها الصحيح (أمكنه الانتصار من النوائب) إذ البلاغة تقتضي تقديم ما يدخل السرور على النفس (الانتصار) ، ولكنه قدم (من النوائب) ليقيم السجع .وفي مرات أخرى يوقعه السجع في الخلل ، من أمثلة ذلك قوله في الاستزارة : " إنَّ الانبساط – أيَّد الله مولاي – قرينةٌ من قرائن الوداد، ونتيجةٌ من نتائج حُسن الاعتقاد ، فمن الكرم المحض أن يُشفَّع شافعه، ويسعد بالمساعدة طالعه، لاسيما لمن يرى أنَّ الجمال به ومنه، والجميل له وعنه "([3]). كثف الضمائر في مساحة وجيزة (به ومنه ، له وعنه) فكثف معها المعنى ، وإذا كان التركيب صحيحًا لغويًا ، فقد نشأ تعقيد في اللفظ من اتحاد الضمائر ؛ فكلها للمفرد الغائب ، وإن سهَّل اتحاد مرجعها سلاسة في الفهم ، فكان الأَوْلى أن يباعد بينها .

من العيوب عنده تكرار الصِّلات والرباطات بلا فاصل :

دعا النقاد إلى حسن استخدام حروف الصلات ، وذلك بالتفريق بينها ، يقول أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) " وينبغي أن تتجنب إعادة حروف الصلات والرباطات في

([1]) تسهيل السبيل لوحة رقم ٦٣.
([2]) تسهيل السبيل لوحة رقم ٧٦.
([3]) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٣٠.

موضع واحد إذا كتبت ، مثل قول القائل : منه له عليه ، أو عليه فيه ، أو به له منه ، وأخفها له عليه ، فسبيله أن تداويه حتى تزيله ، بأن تفصل ما بين الحرفين ، مثل أن تقول : أقمت به شهيدًا عليه "(١) ولم يلتزم الحُمَيدِيّ بتلك الرؤية دائمًا ، وجاءت التجاوزات في استخدام حروف الصلات على النحو التالي :

حروف الصلات	عدد ورودها
له فيه	مرتين
به منه	مرتين
منه به	مرة
عنه فيه	مرة
إليه منه	مرة

من الملاحظ أنها جميعًا من النوع الأخف قبحًا ؛ لأنها توالى حرفي صلة – لا ثلاثة – يحملان الضمير نفسه ، ومنه قوله في تعزية عن ابن: "...، ضاعف الله له الأجر فيه ، وعَوّضه بما يُرضيه، وأَخلف عليه عنه مَن يكون أحبَّ إليه منه."(٢) (عليه عنه – إليه منه) كثف حروف الصلات في مساحة صغيرة ، واختلاف مرجع الضمائر أحدث ما يمكن أن نسميه بالتعقيد اللفظي .ومن ذلك قوله في شكوى تأخر الكتب :"مولاي – أدام الله تأييده – لا يجمع على عبده الأخصِّ وشاكره المُخلص فَقْدَ مشاهدته النفيسة ، وتأخُّر كتبه الأنيسة ، ولا يكاد يستطيع بأحدهما قلب ، فكيف إذا

(١) الصناعتين – أبو هلال العسكري – ص١٤٥ – تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم –ط١ – المكتبة العصرية – بيروت – ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ ، وأعاده القلقشندي ،انظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا- القلقشندي- ٢٥٣/٢ – تح يوسف علي طويل – ط دار الفكر دمشق ١٩٨٧م.

(٢) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٧٤.

ابتُلى بهما صبٌّ ، وقد استعذتُ به منه في ألاَّ يُؤخِّر ما يصحُّ لي به تماسك الرَّمق وقلَّة الأرق " (١) (استعذت به منه) تكرر حرفي الصلة بدون عطف ، ولكنه جاء بمعنى لطيف (الظالم والحامي) ، وما كان له أن يعبر عن ذلك من طريق آخر .

وعلى المنوال نفسه جاء قوله في العتاب : " ليس الحقد – أدام الله عِزَّ مولاي – من سمات أهل الودِّ ، ولا الهُجران من آداب أهل الإيمان ، ولهذا تقدَّمتُ بكتابي إليه عاتبًا ، وتجشَّمتُ أن أسالم منه به مُحاربًا " (٢)، فهو يتحدث عن موقفين من خلال شخص واحد ، فلذا ساغ عندي صَنيعه .

كلمات غيرها أحسن منها:

الحديث في هذا الجانب أمر في غاية الخطورة في ظل غياب معجم مُفصَّل عن التَّطور اللُّغوي من عصر إلى آخر ، ولكننا سنحاول التسديد قدر المستطاع ، والله يعين بفضله، من هذه الكلمات كلمة (يشيله) وقد وردت في رسالة فيما يكتب مع الهدية ، حيث قال : " فالإخلاص إلى جانبه يشيله وينميه ".(٣)

كما وردت في رسالة أخرى فيما يقال في الشكر ، حيث قال : "وشالني إلى هذه المراتب العليا".(٤) ، وهي تدور في المعاجم بمعنى (الرفع) وهي بذلك صحيحة الاستعمال ، وأحسن منها وأجمل لو قال (يحملني أو يرفعني) فكلتاهما مألوفة ، وبهما نطق القرآن .

(١) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٣٧.

(٢) تسهيل السبيل لوحة رقم ١٥٧.

(٣) السابق لوحة رقم ١٢٧.

(٤) السابق لوحة رقم ١٥٣.

ومنها كلمة (ضحاياك) وقد وردت في رسالة فيما يقال في عيد الأضحى ؛ حيث قال : " قبل الله ضحاياك ، وتغمد بالغفران خطاياك ".(1) وهي كلمة صحيحة من الناحية اللغوية كذلك ؛ حيث ورد في لسان العرب :" والضَّحِيَّة معروفة، وهي الأُضْحِيَّة. قال الأصمعي: فيها أربع لغات: أُضْحِيَّة وإِضْحيَّة، والجمع أضَاحِيّ؛ وضَحِيَّة، والجمع ضحايا ، وأَضْحاةٌ، وجمعها أُضْحىً.(2)

ومن الملاحظ أن الحميدي اختار جمعًا للصيغة غير الشائعة وهي (الضَّحِيَّة)، ولو استخدم (الأُضْحِيَّة) وجمعها : (الأضَاحِيّ) لكان أحسن ؛ لأنه يجري على المشهور، ولكن الذي ألجأه إلي ما صنع السجعُ والموازنة مع لفظة (خطاياك).

(1) السابق لوحة رقم ٢٣.
(2) انظر للسان مادة (ضحا) ،

الخـاتمـــــة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصَّمد ، وأُصلِّي وأُسلِّم على سيد الخلق وإمام المرسلين ؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَن سار على نهجه واهتدى بهداه إلى يوم الدِّين .

وبعد...؛

فنرجو بعد هذا العرض أن نكون قد وفِّقنا في إلقاء الضوء على شخصية الحُمَيدِيّ الأديب الكاتب ، و أن نكون قد أسهمنا في الكشف عن ملامح نماذجه الموضوعية ، وخصائصها الفنية ، وأن نكون قد أبرزنا الجهود التي بذلها الحُمَيدِيّ في باب الرسائل الإخوانيَّة ، تنظيرًا وتمثيلًا ؛ ما تفرَّد به، وما سار فيه على نهج السابقين .

وتلك أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

١–أسهم الحُمَيدِيّ وكتابه في التَّنظير لفنِّ الرسائل الإخوانيَّة ، والتَّوسع في تقديم الأمثلة والنماذج ، وبذلك ارتقى إلى السَّبق والرِّيادة ، لكنها لسوء الحظِّ ريادة نظريَّة فحسب ؛ لأنَّ الكِتاب ليس له ظلٌّ في فكر اللاحقين ، فلم يعتمدوا عليه في شتى المستويات .

٢–نزع الحُمَيدِيُّ إلى الأصالة والاستقلال الثقافيِّ ، وربما الانحياز إلى الأندلُسيَّة ؛ فقد اعتمد في التأطير والتَّنظير وضرب الأمثال على أقوال الأندلسيين –غالبًا – دون غيرهم ، واتكأ في النماذج على نفسه فقط .

٣–تخطَّى الحُمَيدِىّ حدود المؤرخ الرَّاصد ، والفقيه النَّاقل ، وانطلق إلى واحة الأدب بقريحة خصبة ، وخيال وثاب ، ورؤية علمية صحيحة واضحة .

٤– قدَّم الحُمَيدِيّ مجموعة وافرة من الرسائل الإخوانيَّة ، وسلسلة ضافية من الأمثلة المتنوعة في أغراضها ، والمتباينة في أهدافها ، والمتفاوتة في أحجامها ، ولكنها مع ذلك اتسمت بسمات فنية واحدة .

٥-كان الحُمَيدِيّ مبتكرًا في موضوعات الرسائل الإخوانية ، ومبدعًا في المناسبات ، بينما خضع في السِّمات الأسلوبية والفنية للسابقين عليه ، ولم يُقدم جديدًا في هذا الجانب .

٦-ناسب الحُمَيدِيّ بين موضوعات رسائله وبين الزمان والمكان ؛ فكما راعى أحوال المخاطبين في الكلام ، راعى ظروف المكان ، واستوعب المناسبات الخاصة بمصر ، وأبرزها وفاء النيل .

٧-كانت رؤية الحُمَيدِيّ لموضوعات الرسائل الإخوانيَّة رَحْبَة ، تتميز بالانفتاح والتَّسامح فتضمَّنت الأعياد غير الإسلامية التي أَلِفَها المجتمع المصري الإسلامي كالنَّيروز والمِهرجان ، مع أن الحُمَيدِيّ صاحب قامة دينية عالية .

٨-نقلت رسائل الحُمَيدِيّ صورة عن قُرب للمجتمع العربي والمصري الذي جمعته أواصر القُربى ، ولفته وشائج الأُلفى ، وكانت الرسائل الإخوانيَّة جسرًا من جسور التواصل بين أفراده في المناسبات المختلفة .

فهرست المصادر والمراجع

- أدب الكاتب لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) – تح : محمد الدالي –ط٢ – مؤسسة الرسالة –١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .
- إحكام صنعة الكلام – أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكُلاعي الإشبيلي(ت٥٥٠هـ) – تح محمد رضوان الداية – ط٢ –عالم الكتب بيروت ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م.
- الإخوانيات في الشعر الأندلسي – علي الغريب الشناوي – ط١ – مكتبة الآداب ٢٠٠٦ م.
- الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع – القاضي عياض بن موسى اليحصُبي (ت ٥٤٤هـ) – ص٥٦– تح :السيد أحمد صقر – ط ٣–مكتبة دار التراث – ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.
- البعد الآخر في الإبداع الشعري – محمد أحمد العزب (ت١٤٣٣هـ) – مطبعة رفاعي القاهرة –١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .
- بغية الملتمس للضبي (ت٥٩٥هـ) – دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٦٧.
- البيان والتبيين للجاحظ (ت٢٥٥هـ)– تح: فوزي عطوي – ط١ – دار صعب بيروت ١٩٦٨م.
- تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان (ت١٣٧٥هـ) – ترجمة – السيد يعقوب بكر – ط٣ – دار المعارف – مصر .
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب – إحسان عباس (مازال حيًا) – ط٤ – دار الثقافة – بيروت ١٩٨٣م.
- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس – محمد رضوان الداية (مازال حيًا) – ط١– دار الأنوار بيروت – ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م.

- تاريخ بغداد وذيوله للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) – تح: مصطفى عبد القادر عطا – ط١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٧ هـ .
- تاريخ دمشق لابن عساكر– (ت٥٧١هـ) تح :عمرو بن غرامة العمروي – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.
- تذكرة الحفاظ للذهبي (ت٧٤٨هـ) – ط١ – دار الكتب العلمية بيروت–لبنان– ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م.
- تسهيل السبيل إلى تعلم الترسيل – الحُمَيدِيّ (ت٤٨٨هـ) – مخطوط في مكتبة عاطف بتركيا ، تحت رقم ١٣٩٢.
- التقريب لحد المنطق لابن حزم (ت ٤٥٦هـ)– تح: أحمد فريد المزيدي – ط١ – دار الكتب العلمية بيروت – ٢٠٠٢م– ١٤٢٤هـ .
- التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار القضاعي (٦٥٨هـ) تح : عبد السلام الهراس – دار الفكر للطباعة– لبنان١٤١٥هـ– ١٩٩٥م .
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر (ت٤٧١هـ) – تح: محمد خلف الله أحمد – محمد زغلول سلام – ط٣ – دار المعارف مصر .
- جذوة المقتبس – الحُمَيدِيّ (ت ٤٨٨هـ) – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨م.
- سحر البلاغة وسر البراعة للثعالبي (ت ٤٢٩هـ)– تح: عبد السلام الحوفي – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
- سير أعلام النبلاء للذهبي (ت ٧٤٨هـ)–تح :مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط – ط٣– مؤسسة الرسالة – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥ م.
- شعب الإيمان للبيهقي (ت٤٥٨هـ)– ١١٦/٤– تح: محمد السعيد بسيوني زغلول – ط١– دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠هـ .

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا- القلقشندي (ت ٨٢١هـ)- تح يوسف علي طويل – ط دار الفكر دمشق ١٩٨٧م.

- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ) – تح : السيد عزت العطار الحسيني - مكتبة الخانجي - ط٢- ١٣٧هـ- ١٩٥٥م.

- الصناعتين – أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) – تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم –ط١ – المكتبة العصرية - بيروت – ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ .

- صحيح البخاري – محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) – تح محمد زهير بن ناصر الدين – ط١ – دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ .

- العقد الفريد – ابن عبد ربه (ت٣٢٨هـ) – تح :أحمد أمين وآخرين – ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤م.

- العمدة لابن رشيق (ت ٤٦٣هـ)- تح : محمد محيي الدين عبد الحميد – ط٥ – دار الجيل – بيروت – ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

- عُمدة الكُتَّاب لأبي جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ) – نشرة مصورة بعناية فؤاد سزكين – معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية – فرنكفورت- ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

- والفهرست – لابن النديم (ت٣٨٠هـ) – تح: ناهد عباس عثمان – ط١ – دار قطري ابن الفجاءة – ١٩٨٥ م.

- لسان العرب – ابن منظور (ت٧١١هـ)- ط ١ دار صادر بيروت .

- المثل السائر لابن الأثير (ت٦٣٧هـ) – تح : أحمد الحوفي وبدوي طبانة – ط الرسالة – بيروت ١٩٦٢م.

- مرآة الجنان لليافعي -(ت٧٦٨هـ)- ط١ - دار الكتب العلمية - بيروت -١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) - تح : إحسان عباس - ط١- دار الغرب الإسلامي - بيروت - ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- المُغرب في حلى المَغرب لا بن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥هـ) - تح :شوقي ضيف - ط٣- دار المعارف - القاهرة -١٩٥٥م.
- مقدمة ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) تح : هيثم جمعة هلال - ط١ - مؤسسة المعارف - بيروت - ١٢٢٨هـ -٢٠٠٧م.
- النثر الأندلسي في عصر الموحدين - علي الغريب الشناوي - ط مكتبة الآداب ٢٠٠٩م .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.
- نفح الطيب للمقريّ التلمسانيّ (ت١٠٤١هـ) - تح : إحسان عباس - ط١- دار صادر- بيروت - ١٩٩٧م.
- الوافي بالوفيات للصَّفدي (٧٦٤هـ)- تح :أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى - دار إحياء التراث - بيروت ١٤٢٠هـ .
- وفيات الأعيان لابن خَلِّكَان (ت ٦٨١هـ) - تح :إحسان عباس - ط١- دار صادر . بيروت -١٩٧١.